شتيفان تسفايغ

مونتيني

ترجمها عن الألمانية: أحمد الزناتي

الكتاب: مونتيني.

المؤلف: شتيفان تسفايغ.

الكتاب في اللغة الألمانية: Montaigne

ترجمة: أحمد الزناتي.

تنسيق داخلي: عمر جوبا.

تصميم الغلاف: إسراء النجّار.

عدد الصفحات: ١٢٨.

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-1-7386435-7-8

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢

جميع الحقوق محفوظة.

منشورات حيـــــاة

الموقع الإلكتروني: Hayatph.com

البريد الإلكتروني: info@hayatph.com

شتيفان تسفايغ

ترجمة أحمد الزناتي

مونتيني

منشورات حياة

(١)

في دنيا الأدب قِلّة من الكُتّاب الذين تكشف أعمالهم عن مكنونها لكل قارئ وفي كل سِنّ وفي كل طورٍ من أطوار حياته، مثل هوميروس، شكسبير، جوته، بلزاك وتولستوي. بينما على الجانب المقابل كُتّاب لا تُميط أعمالُهم اللثام عن قيمتها إلا في ساعة بعينها، من بين هؤلاء مونتيني. وكيما يكون بمقدورك أن تعرف مونتيني حقّ معرفته، ينبغي ألا تُـقبِل على قراءته في سنّ مبكّرة، وألا تكون خلوًا من تجارب حياتية، وأن تكون قد ذُقتَ صنوفًا من خيبات الأمل في الدنيا.

في أفكار مونتيني الحرّة الصامدة، سيعثر جيل كجيلنا ألقى به القَدَر داخل أوار الاضطرابات العالمية، على النصيب الأوفى من الدعم والقوة في مشواره.

وحدهم مَن اضطُرّت أرواحهم الممزّقة إلى العيش في عالم تهدّدُ فيه الحروب ومظاهر العنف والأيديولوجيات الاستبداديةً حياةَ الفرد، وعلى الأخصّ أغلى ما يملك؛ حريته الشخصية، أقول وحدهم هؤلاء يعرفون مقدار الشجاعة والصدق والتصميم الواجب

على المرء التحلّي به ليبقى مخلصًا ووفيًا لذاته في أوقات تطغى فيها عقلية القطيع المجنونة، ووحدهم هؤلاء يعرفون ألا شيء على وجه الأرض أشقّ ولا أصعب من المحافظة على نقاء استقلالهم الروحي والأخلاقي وهم في أتون كارثة جماعية محققة. أما من استطاع أن يطوي الشكّ واليأس في دخيلة نفسه، فسيمكنه أن يقف بحسمٍ ضد فوضى هذا العالَم.

مررتُ بتجربة تعلّمتُ منها أنّ في مقدور الإنسان المجرَّب الذواقة وحده تثمين حكمة مونتيني وعظمتها. الحقّ أقول لكم إنني عندما وقعتُ للمرة الأولى على كتابه الوحيد الذي تركه لنا، وهو كتاب المقالات «Essais»، وكنتُ حينذاك في العشرين من عمري، لم يصادف الكتابُ هوىً في نفسي.

صحيح أنني كنت أتمتع وقتها بذائقة أدبية وفنية هيّأتني لأدرك أني في حضرة شخصية أدبية من طراز رفيع تتحلّى بقدر فائق من جلاء البصيرة ورجاحة العقل ولُطف المعشر. شخصية إنسانية قادرة على أن تصبغ على كل جُملة وكل اقتباس أدبيّ صبغة متفرّدة. لكنّ فرحتي بقيت محصورة في الجانب الأدبيّ وحده، بمعنى أنها بقيت فرحة شابّ عشر على كتابٍ أدبيّ نادر وحسب. كانت تعوزني وقتها الشرارة الداخلية التي يُوقدُ منها الشغف العاطفي، وكانت تنقصني الومضة المشرقة التي تربط بين روحيْن.

بدا لي كتاب المقالات حينها عملًا بارد الروح، يفتقر إلى القدرة

على تلبية احتياجاتي الأدبية؛ فما الذي قد يهمُّ شابًا مثلي ينتمي إلى القرن العشرين في متابعة استطرادات مونتيني اللانهائية حول «مراسم الملوك» أو «تأملاته عن شيشرون»، وهلمَّ جرا. وكم بدت لي طريقة تضمين صفحات العمل المكتوب بفرنسيةٍ عفا عليها الزمان، باقتباسات لاتينية، طريقة طافحة بذوقٍ مدرسيّ عتيق، بل حتى حكمته الناعمة اللطيفة لم تلمس روحي، ربما لأنها جاءت قبل أوان النضج.

وماذا عساني أن أفعل أمام تحذيره الحصيف بضرورة ألا يبذل المرء منا الغالي والنفيس سعيًا وراء تحقيق الطموح، ولا الانغماس بحماسة في شؤون العالم الخارجي؟ سألت نفسي: كيف كان سيبدو وقْـعُ دعوة مونتيني المرهفة إلى تخفيف الوطء في الدنيا والتسامح مع الآخرين، على شابّ مندفع لا يريد لآماله أن تُخفِق ولا لمشاعره أن تفتـر، بل كان يريد خوض غمار الحياة من دون حساب؟

ينفر الشباب بحكم طبيعتهم مِن كل نصيحة تحثّهم على الإسراف في التسامح أو الإفراط في الشكّ بأنفسهم، فكل شكّ عندهم يتحوّل إلى عقبة مُثبِّطة، بينما هم في أمسّ الحاجة إلى الإيمان وإلى التماس المُثل العليا لإفساح الطريق أمام تفجّر قواهم الداخلية. بل إنّ أشدّ ألوان الوهم تطرفًا وعبثية ستبقى في أعينهم أهمَّ وأبلغ من الحِكمة العميقة المثبِّطة لعزائمهم، طالما أنها تذكي حماستهم.

زِد على ذلك: هل كانت الحرية الفردية، التي كان مونتيني هو

داعي دُعاتها والمبشّر الأول بها في كل الأزمان، في حاجة إلى الدفاع عنها بهذه الوتيرة المحمومة ونحن في سنة ١٩٠٠؟

ألم تترسّخ الحرية الفردية منذ فترة طويلة في وجداننا كمسألة بديهية؛ مسألة يكفلها الدستور والقانون وتضمنها الأعراف الإنسانية بعد أن تحرّرَتْ من نير الديكتاتورية والعبودية؟ آنذاك بدَتْ لنا حرية الحياة الشخصية، وحقّ امتلاك الأفكار والتعبير عنها قولًا وفعلًا من دون قيد أو شرط، مسألة بديهية مثل الأنفاس السارية والقلوب النابضة.

كان العالم مفتوحًا أمامنا على مصراعيه بكل دوله وبلدانه، لم نكن أذلّاء لحكومةٍ ولا مستعبدين في تأدية الخدمة العسكرية، ولا خاضعين لبطش الأيديولوجيات المستبدّة، ولم يكن هناك أحد عُرضة لخطر الإقصاء أو المنع أو السجن أو الطرد.

وهكذا بدا مونتيني في أعين جيلِنا مثل سجين مقيّد في أغلال كنا قد كسرناها منذ فترة طويلة، لكننا لم نكن نعلم أنّ القَدَر سيعيد غلّ أعناقنا بهذه القيود مجددًا بطريقة أشدّ صعوبة وقسوة عن أيّ وقت مضى. وهكذا أمسينا اليوم ننظر بعين التكريم والاحترام إلى نضال مونتيني لإعلاء قيمة حرية الروح باعتبارها نضالًا تاريخيًا عظيمًا، كنا قد رأيناه في الماضي بلا قيمة ولا أهمية.

مردُّ ذلك هو سُنن الحياة الخفيّة التي تجعلنا نعرف قيمتها الحقيقة بعد فوات الأوان، وأن نعي قيمة الشباب بعد ضياعه، وأن

ننتبه إلى قيمة الصحة بعد زوالها، وأن ندرك قيمة الحرية التي هي أثمن ما في أرواحنا، في اللحظة التي تُسلَب منّا فيها، أو تكون قد سُلِبَتْ بالفعل.

وهكذا يتحتم علينا لفهم أسلوب حياة مونتيني وحكمته ونضاله الساعي لأن يصير «الإنسان نفسَه فقط»، بوصفه النضال الأشدَ أهمية في حياتنا الروحية، أن نضع أنفسنا في وضع مشابه للوضع الذي عاشه مونتيني.

ونسجًا على منوال مونتيني، كان علينا أن نعايش واحدة من تلك الانتكاسات المروّعة في عصرنا، وأن نطارد بلا هوادة كل الآمال والتجارب والتوقعات والحماسة وصولًا إلى النقطة التي يرى فيها الإنسان «ذاته العارية المجرّدة» المدافعة عن وجوده المتفرّد. وبمجيء هذه اللحظة التي جمَعنا فيها القَدَر كتوأميْن، صار مونتيني الأخ الذي لا غِنى عنه ولا غُنْيَة، وصار العضد، والمعزِّي والصديق الصدوق، لشدّه ارتباط مصيره ومصائرنا.

عندما ظهر ميشيل دي مونتيني أشرقَ أمل كبير في الحياة، أمل مُشابِه لما عشناه في مطلع هذا القرن: الأمل في إضفاء الطابع الإنساني على العالم. وعلى مدار حقبة واحدة، أغدقَ عصرُ النهضة على البشرية السعيدة بكل فنّانيها ورسّاميها وشعرائها وعُلمائها، نفحة جديدة من جمالٍ مكتمل الأركان، لم تؤمّله قبل ذلك قَطّ.

ثمَّ جاء قرن، لا، بل أقول جاءت عدة قرون، راحتْ فيها القوة

الإبداعية الخلّاقة ترفع الوجود الفوضوي المُظلم، خطوة وراء خطوة، وموجة وراء موجة، إلى مراتب النور الإلهي المقدس.

وهكذا صار العالم على حين غرة فسيحًا، ممتلئًا وخصبًا. منذ العهود الغابرة، أعاد العلماءُ تقديم حكمة أفلاطون وأرسطو باللغتين اللاتينية واليونانية إلى البشرية، وبشَّرَ المذهب الإنساني[1] «الهيومانيزم» تحت قيادة إيراسموس بثقافة عالمية موحدة، وبدا أن حركة الإصلاح الديني سعَت إلى ترسيخ مبدأ جديد قوامه حرية الإيمان والاعتقاد، جنبًا إلى جنب مع اتساع المعارف الإنسانية.

أُزيلَتْ الحدود بين الشعوب، حيث منح اختراع الطباعة لكل كلمة ولكل رأي ولكل فكرة فرصة الانتشار بحيوية وانطلاق. وما اختُصَّ به شعب واحد صار ملكًا للشعوب كافة، ومن ثمَّ نشأت وحدة روحية جديدة تسمو فوق صراعات الملوك والأمراء وتتجاوز السيوف والأسلحة الملوّثة بدماء الأبرياء.

ثم حدثت معجزة جديدة: واكَبَ هذا التمدّد الروحي والفكري تمدّد آخر جغرافيّ إلى آفاق لم تخطر على بال بشر من قبل. ففي الناحية الثانية من المحيط الشاسع الذي لم يُبحر فيه أحد قبل ذلك، ظهرت شواطئ جديدة وأراضٍ جديدة، واكتشفتْ قارة شاسعة المساحة تضْمَن موطنًا لأجيال وأجيال. وتدفقتْ الدماءُ الطازجة

---

(١) المذهب الإنساني أو الإنسانية أو الإنسانوية (الهيومانيزم): حركة فلسفية وأدبية نشأت في إيطاليا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، تقول بمحورية الإنسان ومركزيته في هذا الوجود، ومحورها وضع الإنسان فوق كل اعتبار ديني وأخلاقي (المترجم)

تدفقًا سريعًا في شريان مسار التجارة، فأوجَدْ مجتمع الرفاهية، وأثمرتْ الرفاهية بدورها بنايات شاهقة ولوحاتٍ وتماثيل جريئة، وعالمًا روحيًا خصبًا. لأنه دائمًا كلما اتسعتْ الأرض اتسعتْ أرواح البشر.

على هذا النحو بدأ القرن الحالي، عندما ازدادت رحابة العالم ازديادًا مضطردًا عبر غزو الفضاء، وعبر انتشار الكلمة من خلال الأثير لكل البلدان، وبفضل علوم الفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا، سَلَب العلمُ من الطبيعة أسرارها، سِرًا تلو الآخر، ليجعلها في خدمة بني البشر. وأثلج الأملُ الغامر صدرَ البشرية الذي كان مكلومًا بخيبة الأمل في أحيان كثيرة، وتصاعدت صرخة «أولريش فون هوتّن»[1] المبتهجة من بين ملايين الأرواح لتقول: «**ما أمتع أن تعيش الحياة!**»

لكننا نعلم: ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع، بل وسقط سقوطًا مدويًا مثل سقوط مياه الشلال. وما أشبه الليلة بالبارحة؛ إذ تحوّلت المنجزات العلمية والتقنية إلى أفظع عناصر الهدم والتدمير، وتحوّلتْ مكونات عصر النهضة والمذهب الإنساني من علاجٍ شافٍ إلى سمّ زعاف. فحركات الإصلاح التي حلُمت بنفخ روح جديدة في جسد المسيحية داخل أوروبا، أفرزتْ حروبًا وصراعات دينية همجية يندى لها الجبين، وبدلًا من أن تنشر المطابعُ التعليمَ، نشرتْ

---

(١) أولريش فون هوتن: شاعر وباحث ألماني ساخر من القرن الخامس عشر الميلادي، كان ناقدًا عنيفًا للكنيسة الكاثوليكية، ومؤيدًا لحركة الإصلاح اللوثري (المترجم).

الحِجاج اللاهوتي، وبدلًا من أن تنتصر المطابعُ للإنسانية انتصرتْ للتعصّب.

تورّطت دول أوروبا كافة في حروب أهلية دموية مزّقت وحدَتها، وفاقت وحشية الغزاة الجدد في العالم الجديد كل الحدود التي يتصورها العقل. وانتكسَتْ حِقَب «رافائيلو» و«مايكل أنجلو» و«ليوناردو دافنشي» و«دورير» و«إيراسموس» ليكون عنوان العصر الراهن هو فظائع «أتيلا الهوني» «جنكيز خان» و«تيمور لنك».

كانت المأساة الحقيقية في حياة مونتيني هي مشاهدة ذلك السقوط المروّع من علياء الإنسانية إلى الدرك الأسفل من البهيمية، وهي المأساة التي نشهد وقوعها اليوم مرة أخرى في واحدة من نوبات الجنون المتفرّقة التي تضرب أرجاء العالم، برغم يقظة عقولنا وصدمة أرواحنا المتعاطِفة مع ما يجري، بل أقول، نضطرّ إلى أن نشهدها ونحن غائبين عن الوعي.

لم يرَ مونتيني، ولو للحظة واحدة من حياته داخل بلاده أو في العالَم، شيوع قيِم السلام والعقلانية والمصالحة والتسامح، وجميع المبادئ الروحانية السامية التي أقسَمتْ روحه على تحقيقها.

وعندما فتحَ مونتيني عينيه ليلقي نظرة على العالم، ما لبث أن أغلقها، فأعرض ونأى بجانبه مذعورًا ـ مثلنا تمامًا ـ من جحيم الغوغاء والكراهية التي دنّستْ بلاده ودمّرت الإنسانية برمتها. كان آنذاك ما يزال صبيًا لم يتجاوز الخامسة عشرة، عندما

سُحِقتْ الانتفاضة الشعبية في «بوردو» ضد ضريبة الملح (جابيل =gabelle) أمام عينيه سحقًا مروّعًا جعلته ألدّ أعداء العنف طَوال حياته.

رأى الصبي اليافع آنذاك كيف تعرّض مئات الأشخاص للتعذيب الوحشيّ الذي تقشعر له الأبدان من شَنقٍ وخوزقة، وتقطيع الجسم إلى أربعة أجزاء «قتل الإرباع»، وحزّ الرأس والحرق، وكان الصبي يرى الغربان تحلّق حول مكان الإعدام لعدة أيام، لتتغذى على جثث الضحايا المحروقة، نصف المتعفنة. كان يسمع صراخ المُعذّبين ويشمّ رائحة شواء اللحم المحترق المتصاعد في الشوارع. وما أن كبر الصبي حتى اندلعت الحرب الأهلية، التي دمّرتْ فرنسا بأيديولوجياتها المتعصبة تدميرًا تامًا، مثلما تُدمِّر التعصبات الاجتماعية والقومية اليوم العالم من أدناه إلى أقصاه[1].

كانت محكمة Chambre Ardente [محكمة الخِزي التي كانت أغلب أحكامها تنتهي بالإعدام حرقًا][2] تأمر بإحراق البروتستانت. وفي عيد القديس «بارثولوميو» أزهِقَتْ أرواح ثمانية آلاف شخص في يوم واحدٍ، فما كان من «أبناء طائفة

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن تسفايغ كتب هذا العمل في سنة ١٩٤١ إبان إقامته في المهجر فرارًا من بطش النازية (المترجم).

(٢) الملاحظة هنا للمؤلف (المترجم).

الهوجونوت»[1] إلا أن ردّوا القتل بالقتل، والوحشية بالوحشية، فهاجموا الكنائس وحطّموا تماثيل القديسيين، بل حتى لم تُراعى حرمة الموتى إذ طوردت الجثث في المقابر، فنُبِشَتْ ونُهِبتْ مقبرتي ريتشاد قلب الأسد وويليام الفاتح. كانت حشود الجنود تنتقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى أخرى، تارة هجمة كاثوليكية وتارة هجمة بروتستانتية، إلا أنّ الصراع كان دائمًا فرنسيًا، فرنسيون يقاتلون فرنسيين، مواطنون يقتلون مواطنين من بني جلدتهم، وكل طرف يتبارى في أن يثبت للآخر أنه الأكثر وحشية والأشد فتكًا.

وفي أثناء هذه الحروب ذُبح عن بكرة أبيهم، جنود حاميات عسكرية من الجانبيْن على حد سواء، ولُوِّثتْ الأنهار بجثث القتلى ودمائهم، وقُدّر عدد القرى التي دُمِّرت ونُهبت بمئة وعشرين ألف قرية. لكننا نعلم ما يجري بعدها؛ فسرعان ما يُبرَّر القتل بذرائع مثالية؛ عصابة مسلحَة تداهم القِلاع والمسافرين، لا يفرّقون بين بروتستانت وكاثوليك. وهكذا كانت رحلة سريعة إلى غابة مجاورة للمنزل لا تقلّ خطورة عن القيام برحلة إلى الهند الجديدة أو إلى بلاد أكلة لحوم البشر. لا أحد يعرف إن كان منزله وأملاكه ستظلّ في حوزته، ولا أحد يعرف إن كان سيبقى غدًا حيًا أم ميتًا، أسيرًا أم حرًا.

---

(١) جماعة دينية فرنسية في كنيسة الإصلاح البروتيستانتي تعرضت لاضطهاد ديني واسع في بلادها، ففرتْ إلى بلدان مجاورة (المترجم).

في نهاية حياته، أي حوالي سنة ١٥٨٨ كتبَ مونتيني:

«وسط هذا الهرج والمرج الذي نعيشه منذ قرابة ثلاثة عقود يرى كل فرنسي نفسه ـ وينسحب هذا على الفرد مثلما ينسحب على المجموع ـ وجهًا لوجه أمام وضع إنساني قادر على قلب حياته ومصيره رأسًا على عقب بين يوم وليلة».

«الشيء المؤكد ألا شيء مؤكد»[1]: كانت هذه هي رؤية مونتيني، وستنعكس انعكاسًا حتميًا على رؤيته الكلية للعالم، ومن ثمَّ لم يكن أمام الرجل إلا السعي للعثور على لون آخر من ألوان اليقين يتجاوز مملكة هذا العالم، ويتجاوز وطنه الأم ويتجاوز الزمن، شريطة أن يرفض المرءُ الإنشاد وسط جوقة الأبالسة، وأن يرفض مشاركتهم القتل. لم يكن أمامه سوى السعي لأن يجد وطنه الخاص وأن يخلق عالمه الذاتي.

أما كيف كانت مشاعر الناس في ذلك الوقت - وهي تشبه مشاعرنا إلى حد بعيد ـ، تدلّنا على ذلك قصيدة كتبها صديقه الصدوق لابوتييه البالغ من العُمر آنذاك سبعة وعشرين عامًا، وهي قصيدة نُظِمتْ في سنة ١٥٦٠ وقال فيها:

«أية أقدارٍ تلك التي قذفتْ بنا إلى هذه الحقبة وتَركنا لحال سبيلنا؟

---

(١) هذه العبارة كانت من بين العبارات المنقوشة فوق عوارض سقف غرفة مونتيني حيث كتبَ مقالاته؛ والجملة المنسوبة إلى المؤرخ الروماني الأشهر بليني الأكبر تقول: «الشيء المؤكد أنه لا شيء مؤكد، ولا يوجد ما هو أكثر بؤسًا وغطرسة من الإنسان» (المترجم).

أرى أفول بلادي أمام عينيّ ولا أرى خيارًا آخر سوى الهجرة ومفارقة منزلي والمضيّ قدمًا إلى حيث يقودني مصيري. حثّني غضب الآلهة منذ زمن بعيد على اللوذ بالفرار، ناصحًا إياي بالأرض الواسعة فيما وراء البحار. ولو أنّ عالمًا جديدًا ـ يقصد اكتشاف أميركا ـ قد ظهر مع مطلع قرننا هذا، فقد حدث ذلك لأنّ الآلهة قد أهدته إلى البشر كملاذ يحرث فيه الرجال حقولهم تحت سماء آمنة، بينما تقضي سيوفُ المعارك جنبًا إلى جنب مع وباء الطاعون على أوروبا».

في مثل هذه الحقب، حيث يُضَّحى بأسمى قيم الحياة، وبكل ما يجعل وجودنا أنقى وأجمل، وحيث تُضَّحى بقيمنا، وبسلامنا، واستقلالنا وحقوقنا الأساسية على أيدي حفنة من المتعصّبين، وبغية الانتصار لمجموعة من العقائد الجامدة، تُختَزل مشكلات الإنسان الذي يخشى من فقدان إنسانيته إلى سؤال واحد لا غير: كيف أظلّ إنسانًا حُرًا؟ كيف يتأتّى لي، برغم التهديدات والأخطار المحيطة بي، المحافظة على صفاء ذهني وسط سُعار الأطراف المتناحرة؟ وكيف أُبقي على إنسانيتي نقية خالصة داخل قلبي وسط أوار الهمجية؟ وكيف أنفض عن نفسي القيود الاستبدادية التي تسعى الدولة أو الكنيسة أو الساسة إلى فرضها عليَّ رغم أنفي؟ كيف أصون نفسي من الانغماس في اجتراح أفعالٍ وأقوال مناقضة لما تريده ذاتي الحقيقية؟ وكيف أعزل هذا القطعة الفريدة من ذاتي التي تعكس لي صورة الكون بأسره من زاوية معينة، عن التكيّف على القواعد والتدابير المفروضة عليها من الخارج؟ كيف أحمي

روحي، وجسدي، وصحتي، وأعصابي، وأفكاري ومشاعري من خطر التضحية بها لصالح أوهام ومصالح شخص آخر؟

للإجابة عن هذا السؤال وحده كرَّس مونتيني حياته، ونذر طاقاته وجهوده وفنَّه وحِكمته. وفي سبيل الحرية أوقف حياته. راح الرجل يرصد نفسه ويراقبها ويختبرها ويلومها في كل حركة تجترحها وفي كل شعور يراودها.

إن ما جعل مونتيني توأم روحنا في هذه الأيام، هو بحثه الدؤوب وحرصه الدائم على إنقاذ روحه، وعلى إنقاذ الحرية في عصر الرضوخ التامّ لهيمنة الأيديولوجيات والأحزاب. ولئن كنا نُحبُّ مونتيني ونُعلي من شأنه فإننا نفعل ذلك لأنه كرَّس نفسه، كما لم يفعل أحدٌ قبله، لأسمى فنون الحياة: فنّ أن تكون نفسكَ.

في حِقَب أخرى أشدّ هدوءًا وأكثر سلامًا نُظِر إلى إرث مونتيني الفكري والأدبي والأخلاقي والنفسي من زاوية مغايرة؛ فاحتدمَ الجَدل بين الدارسين عمّا إذا كان الرجل متشككًا أم مسيحيًا، أبيقوريًا أم رواقيًا، فيلسوفًا أم فنانًا، كاتبًا محترفًا أم مجرد هاوٍ ذاع صيته. فدُرسَتْ آراؤه حول التعليم والدين بعناية فائقة في أطروحات الدكتوراه والأوراق العلمية.

لكن الشيء الوحيد الذي يمسّني ويشغلني بشأن «مونتين» اليوم هو كيف حرَّر الرجل نفسه داخليًا في وقت مشابه لوقتنا هذا، وكيف نعزّز، عبر قراءة مقالاته، إحساسنا بأفكاره.

الحقيقة أني أرى مونتيني الأب المؤسس، والقديس، والشفيع والصديق الصدوق لكل «إنسان حر» على وجه الأرض. أراه أفضل مُعلِّم لهذا العلم الجديد الخالد الذي ينشد حماية النفس من كل فرد و من كل شيء. قِلّة من البشر على وجه الأرض هم منْ ناضلوا نضالًا أصدق وأقسى من مونتيني لصون ذواتهم العميقة، ولحماية «جوهر وجودهم» بغية أن يبقى ذلك الجوهر غضًّا نقيًا من غثاء أخبار الساعة المستفزّة، فلم يفلح منهم إلا نفرٌ قليل في إنقاذ تلك الذات العميقة. لم ينبع نضال مونتيني لأجل الحفاظ على الحرية الداخلية، وهو النضال الأكثر وعيًا وإصرارًا على الإطلاق قياسًا بمن سبقه من المفكرين، مثقال ذرة من رغبة في استدرار الشفقة أو ادّعاء البطولة. ومن ثَمّ سنخالف الحقيقة لو وضعنا مونتيني تحت مظلة الشعراء والمفكرين الذين وظفّوا كلمتهم للنضال لأجل «حرية البشرية».

فالرجل لم يُؤتَ موهبة كتابة الخطابات الحماسية أو تدبيج النثر الفني البديع مثل شيللر أو لورد بايرون، ولم يتحلَّ بشيء من طباع فولتير الحادة العدوانية. ربما كان الرجل يسخر في دخيلة نفسه من فكرة محاولة أن ينقل إلى آخرين، أو ربما إلى الجماهير، مسألة شديدة الخصوصية والفردانية كفكرة الحرية الداخلية، وكان يبغض من أعماق قلبه مُصلحي البشرية، والمنظّرين وسماسرة العقائد.

كان يعرف جيدًا جسامة مهمة الحفاظ على الاستقلال الداخلي للإنسان. ومن ثمَّ حصَرَ جهوده في الدفاع عن ذلك الحصن الأعمق الذي أسماه جوته «القلعة»، وهو المكان الذي لا يُسمح لأي

شخصٍ آخر بالدخول إليه. وكان التكتيك الفني الذي اتبعه مونتيني هو أنْ يبقى بعيدًا عن مرمى الأنظار قدر الإمكان، معتمرًا شيئًا مثل «طاقية الإخفاء» ليجد الطريق إلى نفسه.

وهذا هو السبب في أنه ليس لِمونتيني في الواقع ما يسمى بالسيرة الذاتية، إذ لم يُثرْ الرجل يومًا حفيظة أحدٍ، لأنه لم يزاحم أحدًا، ولم يسع إلى اكتساب أتباع أو مناصرين.

أما على المستوى الظاهريّ فكان يبدو كمواطن، وموظّف، زوج، كاثوليكي، في صورة الرجل الذي يؤدي المهام المطلوبة منه شكليًا، مرتديًا -أمام العالم الخارجي- عباءة رمادية اللون مغزولة من نسيج «عدم لفت الانتباه».

وكان مُراده من وراء ذلك أن يرصد ويتأمل لعبة ألوان روحه الداخلية في كل فروقها الدقيقة. كان مستعدًا على الدوام لأن يُقرِضَ الآخرين شيئًا من نفسه، لا أن يعطيهم نفسَه، بينما يظلّ محتفظًا لذاته على الدوام، أيًا ما كانت طريقة حياته، بالعنصر الأثمن، وهو جوهر وجوده.

كان يسمح للآخرين بالثرثرة، وبالتجمّع حوله، وبإبداء الحماسة وتدبيج الخطب الوعظية والاستعراض بِعلمهم، وتركِ العالم يسير في طرقه المتشابكة الحمقاء، واضعًا نصب عينيه شيئًا واحدًا فقط: أن يبقى راشدَ الفكر لأجل نفسه، أن يحتفظ بإنسانيته في وقتٍ فقد فيه العالم إنسانيته، أن يكون حرًا وسط قطيع مَسَّه الجنون.

سَخِرَ مِمن نعتوه باللا منتمي، وبصاحب الموقف المائع المتخاذل، أو الجبان، ودَفَع الآخرين للتساؤل عن إعراضه عن السعي وراء المناصب العليا ومظاهر الاحتفاء والتكريم. حتى المقرّبون منه لم تكن لديهم أدنى فكرة عن مقدار المثابرة والجَلَد والذكاء والمرونة التي واظب عليها، بعيدًا عن أعين الجمهور، عاكفًا على أداء المهمة الوحيدة التي نذَرَ نفسه لها: أن يعيش حياته الخاصة بدلًا من يعيش الحياة.. والسلام!

وهكذا فقد أدّى ذلك الرجل، الذي طالما رآه الناس في الظاهر خاملًا بليدًا، بعملٍ رائع لا يُضاهى، عبر الحفاظ على ذاته ووصفِ نفسه، صائنًا بذلك الإنسان الحقيقي الماثل في أعماقه، الإنسان المجرّد الذي لا يحُدّه زمان بعينه.

ولئن كانت الأطروحات اللاهوتية والجدالات الفلسفية للقرن الذي عاش فيه مونتيني تبدو لنا اليوم أفكارًا غير مطروقة، عفا عليها الزمان، فما يزال مونتيني نفسه هو ابن هذا العصر، هو رجل اليوم وكل يوم، ومعاركه تحمل من روح عصرنا الراهن ما لا تحمله أية أعمال أخرى.

لمئات المرّات، وفي كل مرة أعاود فيها تقليب صفحات مونتيني، صفحة تلو الأخرى، لا يفارقني انطباع مؤداه أنّ هذا الرجل إنما ينطق بلساني» = (nostra res agitur)[1]، حيث أرى أنّ

(١) وردت في الأصل بالفرنسية (المترجم).

كل المشاعر هنا موصوفة أدقَّ وأوضح مما لو كنت قد قلتُها بنفسي، أراها أوضح مما لو فكّرتُ أنا فيها بنفسي، وهو ما يشغل روحي في الوقت الحالي. في مقالات مونتيني «أنتَ» هي «أناي»، وفي مقالاته تزول المسافات ويتبخّر الزمن بين حقبة وأخرى.

حين أقرأ مونتيني لا أشعر أنني في صحبة كتاب، ولا عمل أدبي، ولا فلسفي، بل في صحبة إنسان من لحم ودم، أخَ، إنسان يسدي إليّ النصح ويعزّيني بكلمات المواساة ويهديني صفو الصداقة. إنسانٌ حقيقي يفهمني وأفهمه. حالما تلتقط يداي كتاب المقالات تختفي الورقة المطبوعة وسط الغرفة شبه المعتمة. مونتيني هو شخص يتنفّس إلى جواري، يعيش معي. يدلف إلى حجرتي كشخص غريب، لكنه لا يعود غريبًا، بل يمسي صديقًا حميمًا.

مرَّتْ أربعمئة سنة كمرّ السحاب. لم يكن مالك القصر السيد مونتيني، ولا رجل بلاط ملك فرنسا، ولا عمدة بوردو هو من يتحدّث إليَّ الآن؛ لقد خلع الرجلُ العباءة البيضاء ذات الثنيات، وخلع عنه قلنسوته المدببة، ووضع سيفه، وحلَّ من عنقه العقد النفيس ووسام القديس ميخائيل.

لا، لم يعد عمدة بوردو هو من يزورني، ولا الرجل النبيل ولا المؤلف. وإنما صديق جاءني ليسدي إليّ المشورة وليكلمّني عن نفسه. تكتنف صوته أحيانًا مسحة من الحزن الخافت بسبب هشاشة وجودنا الإنساني، وبسبب قصور فهمنا وضيق أفق قادتنا

= (Unsere Führer)[1]، وعبثية عصرِنا وقسوته. هي مسحة الحُزن النبيلة التي رسمَها تلميذُه النجيب شكسبير في أعظم شخوصه الدرامية هاملت وبروتوس وبروسبيرو على نحو لا يُنسى أبدًا.

عند قراءة المقالات أرى ابتسامته مرة أخرى، وأشعر بصوته يهمس في أذني: »لماذا تأخذ كل شيء هكذا على محمل الجد؟ ولما تترك نفسكَ نهبًا للتمزّق والصدمة من جرّاء جنون عصرك ووحشيته؟ لا يمسّ هذا إلا القشرة الظاهرية فقط، حياتك الخارجية، لكنه لا يلمس ذاتك الأعمق. لا يقدر الظاهر والخارجي على أن يسلبكَ شيئًا ولا أن يزعجكَ ما دمتَ لا تسمح للقلق بأن يتسلّل إلى نفسك».

« L'homme d'entendement n'a rien à perdre[2] »

لن تؤثّر فيك أحداث الساعة لو نأيتَ عن المشاركة فيها، وسيظلّ جنون العصر دونما خطر حقيقي لو حافظتَ على جلاء بصيرتك.

ففي اللحظة التي تُظهِرُ فيها ضعف قوّتكَ وقلّة حيلتكَ أمام الأحداث الجسام تكون أسوأ تجارب حياتك، وهي أقسى ألوان الذل وأعنف ضربات القَدَر، وإلا قلْ لي بحقك مَنْ سواك يقيم وزنًا وقيمة لهذه الأحداث؟ ومن سواك يشارك لحظات المتعة والعذاب؟ لا شيء في مقدوره أن يُعلي من شأنك أو أن يحطً من قيمتك سواك

(١) تعمّدتُ ذكر المفردة الألمانية تنبيهًا بتعريض تسفايغ بالزعيم النازي هتلر، الذي كان يُطلق عليه الفوهرر= Führer (المترجم).

(٢) وردتْ بالفرنسية في الأصل: وذو العقل لا يخشى أن يخسر شيئًا (المترجم).

أنت، بل حتى أثقل الضغوط الخارجية يمكن أن تنزاح بسهولة عن كاهل مَنْ يحتفظ برباطة جأشه، ويصون حرية قلبه.

يهبط كلام مونتيني وتتنزّل حكمته على القلب دومًا مثل النعمة المُسداة، وعلى الأخصّ في الأوقات التي يشعر فيها الفرد بتهديد يسلبه حريته وسلامَه الروحي، فلا شيء يحمينا في أوقات الاضطراب والشِقاق أكثر من الإخلاص والإنسانية. إن هي إلا ساعة أو نصف ساعة من تقليب أوراق كتاب مونتيني حتى تعثر على كلمة راجحة تواسي قلبك.

يغلب في ظني أن أقوال مونتيني كافة منذ قرون ما تزال سديدة وصالحة لأيّ إنسان يناضل لتحقيق استقلاله، وليس لدينا مَنْ نَدين له بالامتنان العميق أكثر مِن أولئك الذين يعزّزون في داخلنا ما هو إنساني، في الأوقات التي تغيب فيها الإنسانية كوقتنا هذا. مَنْ يحذروننا من التفريط في الشيء الوحيد الذي نملكه بحقّ ولا يجوز لنا أن نفقده، ألا وهو جوهر نفوسنا، ولا أن نفرّط فيه لصالح القيود الزمنية والحكومية والسياسية المفروضة علينا من الخارج.

وَحده من يحافظ على حريته إزاء الأشياء والبشر، تغتني حياته وينعم بحريته على هذه الأرض.

(٢)

لم يَغرَم صاحب المقالات إلا مبلغًا زهيدًا يُقدَّر بتسعمئة فرنك فرنسي فقط كي يوقِّع كتابه باسم ميشيل دي مونتيني، ثمّ يمهره بخاتم النبالة. وأصل الحكاية أنه قبل شراء جدّه الأكبر لقلعة مونتيني من أساقفة مدينة بوردو مقابل المبلغ نفسه في العاشر من أكتوبر سنة ١٤٦٦، ولمّا كان حفيده، أي والد مونتيني لم يكن قد حصل على إذن بأن يقرنَ لقب النبالة باسم الضيعة المُشتراة، كان يُطْلَق على أسلاف ميشيل، من أبناء الطبقة البرجوازية، اسم العائلة إيكويم[1].

ونظرًا إلى أن ميشيل دي مونتيني كان يعرف بفضل ثقافته الواسعة المتشكّكة، مزية أن يتخذ لنفسه لقبًا رنانًا يطرق الآذان في هذا العالم أو بحسب قوله «أن يحمل اسمًا جميلًا يسهل لفظه وحِفظه»، فقد محى الرجل بعد وفاة والده اسم العائلة القديم من

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن اسمه كاملاً هو: Michel Eyquem, Sieur de Montaigne، ومع نمو أهمية الضيعة اتخذ «ميشيل دي مونتيني» قراره بحجب اسم عائلة «إيكويم» القديم، وكان يوسّع حركة بدأها والده بالفعل بتسمية نفسه «دي مونتيني» (المترجم).

المستندات والوثائق الرسمية كافة. ولهذا السبب فإننا نبحث اليوم في أرشيف الأدب العالمي عن اسم مؤلف المقالات لا تحت حرف (E) لـ Eyquem، ولكن تحت حرف (M) لـ Montaigne.

والحقيقة أن اسم العائلة القديم إيكويم ظلَّ قرونًا عدة مرادفًا لخَزَنة الذهب والفضة، ومرادفًا لرائحة تجارة السمك المدخَن. أمّا بخصوص سؤال من أين تنحدر عائلة إيكويم في الأصل، وهل تنحدر من بلدة بوردو الفرنسية أم من إنجلترا، حيث يزعم مونتيني ـ الذي يجب أن نتعامل معه بحذر دائمًا فيما يتعلق بأصوله ـ أنه وجد آثارًا موثقّة لجذوره العائلية النبيلة. ربما تنحدر أصول عائلته من الضواحي القريبة من بوردو. لا أحد يعرف على وجه اليقين، فقد فشلت أبحاث الأنساب حتى الآن في البرهنة على شيء بالدليل القاطع.

أما الشيء الوحيد الذي يمكن القطع به فهو أن آل إيكويم ظلّتْ تمتلك، لعقود من الزمن، مستودعات في منطقة ميناء مدينة لا روشيل، وكانوا يشحنون منها الأسماك المُدخَّنة والنبيذ وبضائع أخرى جريًا على عادة صغار التجار البرجوازيين.

كان رامون إيكويم، جدّ والد ميشيل مونتيني، والمولود في بلانكفورت في ميدوك في سنة ١٤٠٢، هو مَن أخذ زمامِ المبادرة للتحرّر من تجارة الأسماك والبقالة، وكان بالفعل مالكا لسفنٍ تجارية كبيرة، وواضع حجر الأساس للثروة التي كوّنتها العائلة بفضل

ذكائه الحاد وسِعة حيلته فضلًا عن زواجه من وريثة أغنى عائلات بوردو.

بعد أن شارف الخامسة والسبعين أبرم رامون إيكويم أبرع صفقة استحواذ في حياته عندما اشترى قلعة مونتيني من النبيل الإقطاعي، رئيس أساقفة بوردو، وكان حدث شراء برجوازي عاديّ لهذه القلعة النبيلة عملًا جديرًا بالحفاوة وفق الأعراف السائدة آنذاك.

دخل التاجر المسنّ بمفرده إلى القلعة المهجورة عبر البوابة الكبيرة، وغُلقَّتْ الأبواب من ورائه ريثما ينتهي الخَدم والمستأجرون والمزارعون وقاطنوا الضيعة من أداء القَسَم، ومن رسوم الاحتفاء بسيّد القلعة الجديد. أما ابنه الأكثر تواضعًا، جريمون إيكويم فقد عاش حياته معتمدًا على ثروة والده، صحيح أنه ضاعف ثروة أبيه، إلا أنه ترك القصر القديم شبه المتداعي على حاله ولم يُعر انتباهًا إلى إصلاحه.

أما حفيد رامون إيكويم، أي والد مونتيني واسمه بيير إيكويم، فقد توَّج مسيرة الانتقال الحاسمَ للعائلة من الطبقة البرجوازية إلى الطبقة الأرستقراطية، مُتخليًا عن مهنة تجارة السفن والأسماك المدخنة، ليرتاد عالم الفروسية في الجيش. ففي فترة شبابه رافق الأبُ الملكَ «فرانسوا الأول» في الحرب الإيطالية، وحرّر دفتر يوميات عن هذه الفترة – وهو مفقود بكل أسف–، أعرب فيه عن توقه لأن يُنعَم عليه بلقب «السيد النبيل دي مونتيني». وقد كان له ما أراد.

راح النبيل الجديد يحقّق بوعيّ ما سبق وأن حُلم به جَدُّه عبر تحويل قلعة مونتيني شبه المتداعية إلى ضيعة مهيبة مترامية الأطراف. فوق الأرض الشاسعة التي استحوذ عليها الرجلُ الحصيف المتقّد نشاطًا وحيويةً، ومن خلال عدد لا يحصى من الدعاوى القضائية وعمليات الشراء الفردية، طَوَّق الرجلُ القلعة المهيبة بأسوار عالية سميكة، وأبراج ومنافذ دفاعية[1]، فكان يُنظر إليها من الخارج كحصن حصين، ومن الداخل كبناية تعليمية للمذهب الإنساني و كنموذج لكرم الضيافة. استخلصَ الجنديّ الشابّ، الذي شاهد إيطاليا ونهضتها في أوجَ ازدهارها الفني، الدروسَ والعِبر مما رآه في تجربته هناك، فسعى إلى المضيّ قدمًا في مواصلة تثقيف نفسه.

وتحوّل عنده نهمُ أسلافه إلى المال وسعيهم وراء جني الثروة إلى طموح أكثر نُبلًا، فوضعَ الأساس لمكتبة عامرة، واجتذبَ المتعلمين ودعاة المذهب الإنساني والعُلماء إلى منزله، من دون أن يُهملَ إدارة ثروته الكبيرة ولا ممتلكاته، لأنه اعتبر أنّه يضطلع بمهمة روحية سامية، ومثلما خدَم الملكَ وقت الحرب، آن له أن يخدم وطنه وقت السلم. بعد أن تقلّدَ منصبي مفتش وعضو مُحلَّف في المجلس المحلي، انتهى به الأمر ليصبح نائبًا لرئيس البلدية، ثم تقلّد منصب عمدة مدينة بوردو، حيث أدى تفانيه في أداء مهام منصبه إلى تكريمه تكريمًا رسميًا في نهاية مشواره. بعبارات مؤثرة يرسم مونتيني تفاني الرجل الذي أثقل كاهله المرض والتعب:

---

(١) يُطلق عليها أيضًا مزاغل، وهي عبارة عن كوة ضيقة في السور الدفاعي أو البرج، تُطلَق منها السهام أو القذائف (المترجم).

«حتى في سنوات طفولتي أتذكر أن جدّي طالما بدا لي طاعنًا في السن بعد أن مزّقتْ روحَه صراعاتُ الحياة العامة، وتبدّد دفء البيت العائلي إلى الأبد. ربما كان وهن الشيخوخة قد تمكّن منه قبل أمدٍ طويل. تعرّضَ محيط حياته العائلية للأذى واعتلّتْ صحته. لا شكّ أنه كان يزدري الحياة إذ يشعر بها تتلاشى أمامه. برغم ذلك لم يتوقف عن قطع رحلات طويلة شاقّة لصالح شؤون المدينة. كان هذا طبعه. برغم ذلك تحمّل كل هذه الظروف برحابة صدر، لم أرَ مَن هو أكثر منه صِدقًا ولا أرحب صدرًا».

ثم جاءت الخطوة الثانية وقبل الأخيرة في رحلة صعود نجم آل مونتيني على يد والده. فمِنْ مجرد تُجار صغار لا يهمّهم سوى جمع المال وإثراء عائلاتهم، صعد نجمُ آل إيكويم، وصاروا صفوة المجتمع وسادة قلعة مونتيني، وحظيت أسماؤهم بآيات التبجيل والاحترام في كل من منطقتي بيريجور وجوين. إلا أنّ الابن وحده هو الذي كُتب له أن يختم رحلة صعود نجم العائلة، وسيكون مُعلّم شكسبير، مستشار الملوك، فخْر بلاده، والقديس الشفيع للمفكّرين الأحرار في كافة أرجاء الأرض.

هكذا، وبينما نشأت أصول عائلته من ناحية الأب في غضون ثلاثة أجيال، بدايةً من رامون مرورًا بجريمون، وصولًا إلى بيير إيكويم، واصلت عائلة والدة ميشيل دي مونتيني صعودها بالإيقاع نفسه، وبدرجة المثابرة والبصيرة والحكمة نفسها. عندما اختار سيور بيير دي مونتيني، والدُ كاتبنا، إذ أتمّ عامه الثالث والثلاثين، الآنسة

أنطوانيت دو لوبس دي فيلنوف زوجة له، بدا للوهلة الأولى أن النبلاء القدامى يندمجون مع أشباههم. ولكننا إذا عدنا إلى الوراء وتقصيّنا سجلات الزواج في الوثائق القديمة واطّلعنا على الملاحظات الأرشيفية، سنكتشف أن نبالة آل دو لوبس دي فيلنوف هي في الحقيقة نبالة حديثة العهد مثلها بالضبط مثل نبالة آل إيكويم، ولو استخدمنا كلمات كازانوفا: اخترت من الأبجدية اختيارًا عشوائيًا مثل كلمات مفردة «إيكويم Eyquems».

ففي الوقت نفسه تقريبًا الذي ناضل فيه تاجر السمك المدخّن رامون إيكويم قبل قرن من ولادة مونتيني لأن يخطو خطواته الأولى للخروج من العالم البرجوزاي المُهمَل اجتماعيًا، والارتقاء والصعود إلى الطبقة الأرستقراطية، خطا يهودي إسباني ثريّ من سرقسطة يُدعى موشيه باتشاجون خطوة مماثلة للخروج من جماعته المنبوذة عبر تعميد نفسه كمعتنق للديانة المسيحية. ومثلما حاول آل إيكويم إخفاء أصولهم الحقيقية عن نسلهم، تبنّى الثري الإسباني بعد المعمودية إسمًا إسبانيًا رنانًا نبيلًا بدلًا من اسمه اليهودي، فسمّى نفسه «جارثيا لوبيز دي فيلانوفا»، بينما لاقت فروع عائلته التي تفرّق شملها على نطاق واسع مصيرها المفجع على أيدي محاكم التفتيش الإسبانية.

أفلح بعض المتنصّرين الجُدد[1] في إحراز النجاح فاشتغلوا كمستشارين أو مصرفيين، أما الأقلّ نصيبًا من الذكاء أو الحظّ

(١) يُطلق عليهم أيضًا المسيحيون الجُدد أو المتحوّلون دينيًا (المترجم).

منهم فأعدِموا حرقًا مثلهم مثل «المارانوس»[1]، وأما الأوفر حظًا من الحذر والحيطة فلاذوا بالفرار من إسبانيا في الوقت المناسب قبل أن تمحَص محاكم التفتيش الإسبانية ما في قلبوهم من حقيقة إيمانهم المسيحي. وهكذا انتقل فرع من العائلة إلى أنتويرب ليعتنق المذهب البروتستانتي، بينما نَقَل الفرع الكاثوليكي من الأسرة تجارته وأعماله إلى مدينتي بوردو وتولوز، حيث تفرنَسَتْ العائلة وأطلقتْ على نفسها اسم Louppes de Villeneuve إمعانًا في إخفاء أصولها.

تشابكت خيوط العلاقات والمصالح التجارية الناجحة بين عائلتي مونتيني ودي فيلنوف، أو لو صحّ القول بين عائلتي إيكويم وباتشاجون، وتُوِّجتْ هذه العلاقات بالزيجة الأكثر نجاحًا، متمثلةً في اقتران بيير إيكويم بالآنسة أنطوانيت دي لوبس في الخامس عشر من يناير سنة ١٥٢٨، وكانت قيمة المهر ألف جنيه ذهبي، مما يُمكنّنا من تخمين مدى ثراءة عائلة إيكويم آنذاك على وجه التقريب لو أخذنا في اعتبارنا وصف ميشيل دي مونتيني لاحقًا لقيمة هذا المهر بأنه زهيد نسبيًا.

---

(١) أطلقت كلمة المارانوس على اليهود الذين اعتنقوا المسيحية طوعًا أو قسرًا في كل من إسبانيا والبرتغال في القرن الخامس عشر الميلادي. تعرض اليهود لموجة من الاضطهاد على أيدي المسيحيين الكاثوليك، ما جعلهم بين خيارين، إما التمسك بيهوديتهم والرحيل بعيدًا، أو البقاء في إسبانيا والبرتغال، وإعلان دخولهم في المسيحية لاتقاء مخاطر الاضطهاد الديني، ولا تخفى على القارئ إشارة المؤلف المستترة إلى المقارنة بين وضع اليهود في إسبانيا في تلك الحقبة وبين وضعهم في ألمانيا النازية (المترجم).

تخلو مؤلفات مونتيني وأعماله من إشارة واحدة إلى أمّه اليهودية الأصل التي عاش معها تحت سقف واحد زهاء نصف قرن، وعاصرَتْ أوجَ مجده الأدبي. كلّ ما نعرفه عنها هو أنها استطاعت إدارة شؤون البيت النبيل بحكمة ورجاحة عقل حتى وفاة زوجها الذي أنجبَتْ منه خمسة أطفال، حتى أنها كتبَتْ بفخر في وصيتها:

«من المعروف أنني عملتُ طَوال أربعين سنة في منزل مونتيني جنبًا إلى جنب مع زوجي، وبفضل جهدي في الرعاية زادتْ قيمة المنزل وتحسَّن وتوسَّعَ».

هذا هو كلّ ما نعرفه عنها، وأغلب الظنّ أن إغفال ذكر الأمّ على مدار أعماله يُعزى إلى رغبة مونتيني في إخفاء أصوله اليهودية والتستر عليها. فبرغم كل ما تحلّى به من خصال الحِكمة، عانى الرجل من خِصلة الافتتان البغيض بنبالة العِرق وشرف الأصل، ولا شكّ أنّ هذا هو السبب الذي دفعه لأن يطلب في وصيته أن يُدفَن في «مقبرة أجداده»، التي لم تكن تضمُّ سوى رفات جثمان أبيه فقط! ولم تكن زوجته ولا ابنته بأفضل حالًا من أمّه، حيث لم يشر إليهما في أعماله إلا في إهداء يتيم لم يكرّره. كانت نظرة مونتيني إلى العالم قد تشكّلت على غرار نظرة العصور القديمة التي لم تكن تولي اعتبارًا لمكانة المرأة في الأوساط الفكرية، ومن ثمَّ فنحن لا نعرف شيئًا عن مشاعر حبّ أو بغضٍ كان يضمرها حفيد آل إيكويم إلى حفيدة آل موشيه. كانت عائلتا أبيه وأمّه هما الرافدان القويّان الحيويان في

حياته، وكانا يتكاملان داخل شخصية مونتيني ويستنفدانه في آن معًا، مثل تيارين يصلان إلى قمّة الهرم.

ففي داخل مونتيني كان كلّ صراع ينشبُ بين صيادي جاسكون[1] والتُجار اليهود يُحَلّ في شكل جديد متآلف وخلّاق. ومن هنا فمن الصعوبة بمكان أن نميّز إلى أيّ الفريقين كان مونتيني يدين بالفضل أكثر من نظيره، وقد أسفر هذا التكوين عن نشوء هذا النسيج المكتمل.

لا يسعنا إلا أن نقول إنه عبر هذا المزيج كُتبَ له أن يصير رجل وسطيًا بامتياز، الرجل المصغي إلى الأطراف كافّة من دون الميل إلى كفّة بعينها. وكُتب له أن ينبذ التحيّز تحت كلّ ظرف من الظروف، وأن يصير مفكّرًا حرًا، ومواطنًا كوزموبوليتانيًا، ورجلًا ذا تفكير متسامح. أن يصير نموذج الابن والمواطن غير المنتمي لعرقٍ أو قومية بعينها، وأن يكون رجلًا موطنه هو العالم، مواطن يسمو فوق البلدان والأزمان.

---

(١) منطقة ثقافية ومقاطعة سابقة تقع في الإقليم الحالي للمقاطعات الفرنسية لاندز وخيرز وهاوتس-بيرينيه وجزئيًا، مقاطعات أخرى في مناطق نوفيل-آكيتاين وأوكسيتاني، وكذلك كوماركا فال داران، في شمال مجتمع كاتالونيا المتمتع بالحكم الذاتي في إسبانيا، والتشبيه هنا يصف التنوّع الثقافي الخلاق داخل روح مونتيني (المترجم).

(٣)

ينطوي كل لقب نبيل على إرادة لا واعية تنشد دائمًا صونه والحفاظ عليه لينتقل بسلاسة من جيل إلى جيل، وهو ما حدا بالسيد بيير إيكويم، أول حاملٍ لِلقب حاكم قلعة مونتيني، أن يزهو بكونه الأب المؤسّس لسلالة سيُكتب لها علوّ الشأن مستقبلًا، سيّما عندما بلغه في اليوم الأخير من شهر فبراير لسنة ١٥٣٣، نبأ ميلاد أول طفل ذَكَرٍ له، وهو ميشيل دي مونتيني، بعد أن فقد طفلتيْن فور ولادتهما.

ومنذ الساعة الأولى التي أبصر فيها الطفلُ نور الدنيا نَذَره أبوه لشأنٍ عظيم، فكما سبق وأن جاوَزَ الأبُ أباه تعليمًا وثقافة ومكانة اجتماعية، سيتحتّمَ على الطفل الوليد أن يجاوزَ أباه. في قصرٍ منعزل في «جاسكوني»، في منتصف القرن السادس عشر، وقبل قرنين ونصف القرن من ميلاد جان جاك روسو، وقبل ثلاثة قرون من ميلاد بيستالوزي[1]، راح العسكريَ الكهل، حفيد تاجر الأسماك، ينعم النظر في نوع التعليم الذي سيقدّمه لإبنه الوليد، فدعا العلماءَ من أصحاب المذهب الإنساني إلى بيته للتشاور معهم

(١) المقصود هو (يوهان هاينريش بستالوتشي Johann Heinrich Pestalozzi ((١٧٤٦ - ١٨٢٧). معلم سويسري، أصبح رائدًا من رواد التربية الغربية الحديثة (المترجم).

بشأن الطريقة المثلى للتعليم التي تمهّد للطفل طريق التميّز والانفراد إنسانيًا واجتماعيًا منذ نعومة أظفاره وحتى يبلغ أشدّه. واللافت أن هذه الطريقة المذهلة قياسًا بحقبتها الزمنية آنذاك، كانت منسجمةً انسجامًا عميقًا مع أحدث المناهج التعليمية الآن.

كانت الخطوة الأولى مغرقة في الغرابة. فبينما كان الطفل في مهده، ولمّا يُفطَم عن صدر أمّه، وبدلًا من الاستعانة بمرضعة كما جرت العادة في البيوت الملكية والأرستقراطية آنذاك، أُخرِجَ الطفل بعيدًا عن قلعة مونتيني ليعيش في كنف أسرة معدمة تشتغل في قطع الأخشاب في قرية صغيرة داخلة ضمن أملاك السيد مونتيني.

لم تكن غاية الأب أن يخشوشن الطفل فيعتمد على ذاته ويقوّي لياقته البدنية وحسب، وإنما أراد لطفله – في بادرةٍ ديمقراطية غير مفهومة في ظلّ تلك الحقبة الزمنية– أن يكون قريبًا من الناس وقريبًا من الظروف المعيشية لِمن يحتاجون إلى معونتنا على حدّ تعبيره. وربما يكون بيير إيكويم، حينما كان ما يزال بروجوازيًا صغيرًا، وقبل أن يحمل لقب النبالة، قد ذاق مرارة غطرسة الإقطاعيين، وبالتالي لم يُرِد لابنه منذ البداية أن يرى نفسه واحدًا من «علية القوم»، أو فردًا من أفراد «طبقة الصفوة»، وإنما أراد له أن يتعلّم منذ نعومة أظفاره أن «**يولي عنايته لأولئك الذين يمدّون إلينا يد العون، لا أولئك الذين يديرون إلينا ظهورهم**»، بحسب قول مونتيني.

أما على المستوى الجسدي فيبدو أن مونتيني قد صَمَد أمام اختبار

شظف العيش وأسلوب الحياة المتقشّفة التي نشأ عليها في الكوخ البائس، فيشير إلى أنه اعتاد في فترة الطفولة على اتّباع نظام غذائي بدائيّ، فكان يؤثر تناول طعام الفلاحين المعتاد كالخبز الأسمر واللحم المقدّد والثوم، على تناول الحلويات والمربّى والكعك.

بقي مونتيني طوال حياته ممتنًا لوالده لأنه أبعَده عن العصبية الطبقية والغطرسة، وبينما كان «بلزاك» يكيل لأمّه كلمات اللوم والتوبيخ حتى وفاته لأنها ألحقَته بمنزل «الدَرَكْ[1]» حتى بلغ الرابعة بدلًا من أن يعيش في كنفها، يقـرُّ مونتيني بفضل التجربة حسنة النية بقوله: «لو رُزِقتُ ذكورًا فسأتمنّى لهم المصير نفسه الذي لقيته».

ثم يُمسي التغيير أشدّ وضوحًا حالما يعيد الأبُ الطفلَ ليسكن قلعة مونتيني بعد مرور ثلاث سنوات. فوَفق نصيحة الأصدقاء العُلماء: «بعد أن يقوى الجسد لابد من تدليل الروح قليلًا»، وكما ينتقل المرء من الحرّ إلى البرد، انتقل الشاب ميشيل من عالم الطبقة الكادحة إلى عالم الإنسانيات المنعّمة. كان عـزم الأب بيير إيكويم قد استقرَّ منذ البداية على ألا يصنع من ابنه نبيلًا عاطلًا يُهدر أوقاته بلا هدف في لعب النرد وشرب النبيذ وممارسة الصيد، ولا أن يُنشّئه ليكون مجرد تاجر وكانزٍ للأموال. وإنما أراد له أن يرتقي ليلحقَ بدوائر من يرسمون مصير العصر في دوائر الملوك والحُكام من خلال التفوّق الفكري والتعليم والثقافة، دوائر من تؤثّر كلماتهم

---

(١) الدَرَك أو الجَنْدَرْمة أو الحَرَس، وباللغة الفرنسية (Gendarmerie) قوة عسكرية نظامية مكلفة للقيام بمهام متعددة (إدارية، قضائية، عسكرية) (المترجم).

على مجريات الأمور، دوائر أولئك الذين يخرج عالمهم الفكري مِن ضيق المقاطعات المحلية إلى رحابة العالَم الشاسع. ومن ثمَّ كان مفتاح الولوج إلى هذا العالم الفكري الواسع في قرن المذهب الإنساني [الهيومانيزم] هو تعلّم اللغة اللاتينية، لذا قرَّر الأب أن يضع هذه الأداة السحرية في يد ابنه في أسنح فرصة ممكنة.

في هذه القلعة النائية الكائنة في منطقة بيرجورد، أُجرِيَتْ تجربة مفعمة بمسحة إثارة قوية وإن لم تخلُ من لمسة كوميدية واضحة. يتجشَّم الأب نفقات استدعاء مُدرّس ألماني للحضور إلى القصر، مشترطًا عن عمدٍ ألا يتقن ذلك المعلّم كلمة فرنسية واحدة، وعيَّن في خدمته مساعدَيْن لا يقلّان عنه عِلمًا وكفاءة، ثم حظر على الجميع حظرًا باتًا التفوّه بكلمة أمام الطفل إلا أن تكون حصريًا باللاتينية. وكانت جميع المفردات والجُمل الأولى التي يتعلّمها الطفل البالغ من العُمر أربع سنوات باللغة اللاتينية وحدها.

وللحيلولة دون أن يكتسب الطفلُ اللغة الفرنسية كلغةٍ أم، ومن ثمّ تتعكّر درجة صفاء ونقاء لغته اللاتينية فُرضتْ على الطفل دائرة سريّة. فلو أراد الأب أو الأم أو طاقم الخَدَم التواصل مع الطفل ذي الأربع سنوات، كان يتحتّم عليهم الاستفسار من المُدرسّين عن المفردات اللاتينية لما يودّون قوله أولًا، ومن هنا تفجّر الموقف الكوميدي بحقّ في قلعة مونتيني لإنجاح هذه التجربة التربوية، حينما تحتّم على المنزل برمته: الأب والأم والخَدَم والحاشية تعلّم اللغة اللاتينية لأجل التعامل مع طفل لا يتجاوز أربع سنوات، الأمر

الذي أسفر عن نتيجة مضحكة، ألا وهي انتشار المفردات والأسماء اللاتينية انتشارًا واسعًا في القرى المجاورة، إلا أنّ ذلك أدّى إلى تحقيق النتيجة المرجوّة.

وبرغم أنّ سيّدَ النثر الفرنسي العظيم لم يستطع نطق جملة واحدة باللغة الفرنسية حتى بلغ السادسة من عُمره، إلا أنّه كان يملك ناصية اللغة اللاتينية في أنقى صورها وأشدّها اكتمالًا بدون كتاب تعليمي أو قواعد أو إكراه، من دون ضربة عصا ولا إهراق الدمع.

كانت لغة العالم القديم «اللاتينية» هي لغته الأصلية، أي لغته الأم حتى أنه لبث طَوال حياته يؤثر قراءة الكتب باللغة اللاتينية على قراءتها بلسان قومه. وحتى في غمرة لحظات الفزع والصراخ المفاجئ، كانت الكلمة اللاتينية تهبط على طرف لسانه رغم أنفه، عوضًا عن الكلمة الفرنسية. ولو أنّ مونتيني لم يرَ في سنوات نضجه اضمحلال المذهب الإنساني لَوَضع كتاب المقالات مثله مثل أعمال «إيراسموس» بهذه اللغة الفنية المتجددة، ولفقدَتْ فرنسا واحدًا من أعظم كُتابها قاطبة عذوبة ونصاعة.

كانت هذه الطريقة في حثّ ابنه على تعلّم اللاتينية من دون جهدٍ ولا كتب دراسية وعبر اللعب فقط، مظهرًا واحدًا من مظاهر توجّه الأب إلى تعليم ابنه دون تجشيمه أية مشقة. على نقيض نظام التعليم الصارم آنذاك الذي كان يفرض اللوائح القاسية عبر التلويح بالعصا. فكانت هذه الطريقة وسيلةً ناجعة لأن يشكّل التلميذُ شخصيته وفق

ميوله الداخلية الفردية. أوعز المستشارون التعليميون المنتمون للمذهب الإنساني صراحةً إلى الأب المهتمّ بتنشئة طفله باتّباع هذه الطريقة، أو حسبما كتبَ مونتيني لاحقًا: «**طريقة علّمتني تذوق العلم وإدراك واجباتي عبر تعزيز الإرادة الحرة وإذكاء رغبتي الخاصة من دون إكراه، وعلّمتني الارتقاء بروحي بلطف وحرية، من دون قسوة ولا ضغوط مفروضة**».

تخبرنا تفصيلة صغيرة إلى أيّ حدٍ مورِسَتْ هذه الطريقة من طرائق التربية الواعية للإرادة الحرّة وراء أسوار قصر بريجورد العجيب. يبدو أن واحدًا من كبار المعلّمين أعرب عن رأيه بأنه مما يؤذي «**دماغ الطفل الغضّة**» إيقاظ الطفل من النوم صباحًا بحركة مباغتة فينهض مفزوعًا من الفراش. فوُضِع نظام مخصوص لتجنيب أعصاب الطفل خطرَ التعرّض لهذه الصدمة؛ فكان يتمّ إيقاظ ميشيل دي مونتيني صباح كل يوم في سريره الصغير على أنغام الموسيقى، حيث يتحلّق عازفو الفلوت أو الكمان حول السرير، منتظرين إشارة البدء لإيقاظ ميشيل من أحلامه إيقاظًا لطيفًا عبر عزف لحنٍ خفيف من الألحان، وكانت هذه الطريقة الرقيقة تُؤدَّى بأكبر قدرٍ من الحرص والانضباط. يقول «مونتيني:» لم أُحرَم في أي وقت من الأوقات من هذه الخدمة».

والحقيقة أن أحدًا من أبناء آل «بوربون»[1] ولا نسل آل

---

(١) آل بوربون عائلة ملكية أوروبية عظيمة الشأن، يعود نسبهم إلى الملك لويس الأول، ملكتْ فرنسا في القرن السادس عشر، وبحلول القرن الثامن عشر حكموا عروشًا في إسبانيا ونابولي وصقلية (المترجم).

«هابسبورج»[1] لم ينعم بهذا القدر من العناية الفائقة من التعليم مثلما حظي حفيد تاجر السمك والسمسار اليهودي.

لكنّ تجربة التربية الفردية هاته، التي لا تحرم الطفل من أيّ شيء، وتُرخي العنان لميوله، لم تكن تخلو أيضًا من مجازفة، فالإسراف في التدليل، وتلبية طلبات الطفل، وعدم إخضاعه لأيّ لون من ألوان التأديب ربما يعطي الطفلَ الفرصة للانسياق وراء كل رغبة ومطاوعة أهواء النفس المرذولة.

بل إن مونتيني نفسه اعترف فيما بعد بأن المصادفة وحدها هي صاحبة الفضل في أن تُفلحَ معه هذه الطريقة الرخوة الناعمة في التربية إذ يقول: «لو أن التوفيق قد حالفني في حياتي فسأقول إن ذلك جرى بمحض المصادفة ودون تدخّل مني، ولو كنتُ ولِدْتُ بمزاج أقلَّ خضوعًا للقواعد، لخشيتُ على نفسي من مصير يؤسَف له».

ترسَّبَتْ آثار هذه التنشئة بحلوها ومُرّها، في نفس مونتيني طَوال حياته، وتجلّى ذلك على وجه الخصوص في مقاومته العنيدة للرضوخ لأية سلطة، والخضوع لأيّ نظام، ومن ثمَّ ضمور الإرادة لديه. طبَعت هذه الطفولة حياته على مدار السنوات التالية بطابع الفساد، إذ أنشأته على تجنّب صنوف الإجهاد القوي العنيف كافة،

---

(١) آل هابسبورج كانوا أحد أهم العائلات المالكة في أوروبا، وهم من أصل ألماني وتشتهر العائلة بكونها مصدر الأباطرة المنتخبين رسميًا لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين ١٤٣٨ - ١٧٤٠ (المترجم).

وجميع ألوان الصعوبات والواجبات والالتزامات قدر الإمكان، والاستسلام دائمًا وأبدًا إلى صوت رغباته وتلبية نزواته.

ربما تُعزى بذور خِصلَتي «الخمول» و«اللا مبالاة»، اللتين طالما شكا منهما مونتيني، إلى هذه السنوات المبكرة من حياته، وربما تُعزى أيضًا إلى رغبته التي لا تلين في البقاء حرّ الإرادة، غير خاضع لعبودية شخص آخر. كان مونتيني مدينًا لوالده بأنه اختصّه بأوجهِ الرعاية والاهتمام، إذ قال بفخرٍ لاحقًا:

«أتمتع بروح حرة، قائمة بنفسها، دأبَتْ على توجيه نفسها وفق إرادتها الخاصة».

فمن ذاق طعم الحرية وحلاوتها، حتى لو كان قاصرًا مفتقرًا إلى الوعي، فلن ينساها أو يفتقدها. أسعف الحظُّ مونتيني لأن تكون هذه التربية المدلّلة المتسامِحَة فرصةً لتنمية روحه المتفرّدة، ومِن حسن حظّه أنها انتهَتْ في الوقت المناسب. ولن يُقدِّر المرء قيمة الحرية لو لم يذق طعم القيود.

تلقّى مونتيني نصيبًا وافرًا من هذا التعليم المنزلي، حتى أُرسِلَ وهو في سنّ السادسة إلى كلية بوردو ليبقى هناك حتى الثالثة عشرة. ولكن لم يكن معنى هذا أن يُعامَل ابن أغنى رجال المدينة وعمدتها معاملة قاسية صارمة، فالمرة الوحيدة التي عوقب فيها باستخدام العصا كانت معاقبة «ناعمة رقيقة».

برغم ذلك وجد مونتيني نفسه في مواجهة نظام تعليمي صارم يفرض رؤاه فرضًا على التلاميذ، من دون أن يشاورهم عن آرائهم. ومن ثمَّ تحتَّمَ عليه، وللمرة الأولى في حياته أن يدرس دراسة نظامية، وأن يقاوم غريزة الأطفال التي دأبَ عليها في تعلُّم ما يحلو له، وأن يصمدَ أمام معرفة مصوغة صياغة جامدة صارمة، ومفروضة عليه فرضًا.

يَعيب مونتيني على المعلّمين بقوله:

«يصرخ المعلّمون بالدروس في آذاننا كما لو أنهم يصبّون العلم صبًا داخل أنابيب، وكما لو أنّ مهمتنا محصورة في تكرار ما يقولونه واستظهاره. وبدلًا من السماح للتلاميذ بتطوير آرائهم الخاصة تطويرًا بنّاءً مثمرًا، يحشرون عقولهم بمواد ميتة. إننا ندرس فقط لكي نحشو عقولنا. ولكن ما فائدة أن نملأ بطوننا باللحم إن لم نكن قادرين على هضمه؟ وإن لم تغيّر المعرفة شيئًا في أرواحنا؟ وإن لم تمدّنا بالدعم والعزم؟»

كان قلبه يطفح بالمرارة عندما يَفرض عليه المعلّمون الحقائقَ والأرقام واللوائح والنُظم، وعندما كانوا يُمْلون عليه معرفة مستمدة من الكتب وحدها «معرفة الغطرسة والغرور». ولم يكن عبثًا أن يُطلق عليهم التلاميذ آنذاك لقب «المتحذلقين». وكان غاضبًا من اعتبار المعلّمين التلميذ الأنجب هو التلميذ صاحب الذاكرة الأوعى حفظًا للمواد. برغم أن الإفراط في التحصيل الدراسي وتكديس

المعلومات هو نفسه ما يقتل عند التلميذ مَلَكَة القدرة على تكوين صورة كلية للعالم.

يقول مونتيني:

«وكما تهلك النباتات من جرّاء الرطوبة الزائدة، و تنطفئ المصابيح لو أفرطنا في تزويدها بالزيت، يتأثر نشاطنا العقلي بالإفراط في الدراسة والتحصيل. فحفظُ الشيء عن ظهر قلب لا يعني أن الإنسان يعرف شيئًا، بل يعني أن ذاكرة الإنسان تحفظُ شيئًا وحسب».

ليس بيت القصيد أن تعرف تاريخ وقوع معركة قرطاجة في كتب ليفيوس أو «بلوتاريخ»[1]، بل الغاية أن تتعرّف إلى شخصية شيبيون الإفريقي وهانيبال[2]، وليس المهم أن تعرف الحقائق التاريخية الباردة، بل أن تستوعبَ مضمونها الإنساني والروحي.

لذا سيلقّن مونتيني، حينما ينضج لاحقًا، مُعلّمي المدرسة الذين لم يكن يعنيهم سوى حشر المعلومات في الرؤوس بطريقة آلية، درسًا بليغًا، إذ يقول في سنواته المتأخّرة:

«كان الأحرى بالمعلّمين الحكم على كفاءة التلميذ من خلال

---

(١) ليفيوس واحد من أشهر المؤرخين الرومان وتناولت أعماله تأريخ الإمبراطورية الرومانية منذ تأسيس روما، أما بلوتاريخ (أو بلوتارخوس) فهو فيلسوف ومؤرخ روماني معروف، وأشهر أعماله كتاب «سير العظماء»، الذي يتردد ذكره دائمًا وأبدًا في مقالات مونتيني (المترجم).

(٢) شيبيون الإفريقي، وفي تسمية أخرى سكيبيو الكبير أو أفريكانوس الكبير هو قنصل وقائد عسكري روماني اشتهر بانتصاره على هانيبال (المترجم).

الشهادة التي اكتسبَها في حياته، لا من خلال قوة ذاكرته. اتركوا الفرصة للشابّ لأن يقرأ ويفحص ويمحّص، وألا يَقبلَ شيئًا بدافع من حسن النيّة أو بمقتضى السلطة المفروضة عليه، ولا بد من أن تُعرضَ على الشاب مجموعة متنوعة وثرية من الآراء، فلو كان مؤهلًا سيتخذُ قراره، وإلا سيظلُّ متخبطًا في دروب الشكّ. مَنْ يتبع أثر الآخرين فإنه في الحقيقة لا يتبع أثر شيء البتة، ولن يعثر على شيء، لأنه لا يبحث عن شيء».

أخفق المعلّمون البارعون -برغم وجود مُعلّمين ممتازين ومُمثلين مرموقين للمذهب الإنساني من بينهم- في أن يقدّموا لهذا الصبي صعب المراس ما ينشده من تعليم متحرّر الفكر، وكان هذا سبب مغادرة الصبي المدرسة من دون توجيه كلمة شكرٍ واحدة، أو بحسب تعبيره: «**من دون نتيجة ملموسة يمكن أنظر إليها اليوم بعين الاعتبار**».

وكما كان مونتيني ساخطًا على أسلوب معلّميه، لم يكن المعلّمون بأكثر رضاءً عن تلامذتهم. ولو غضضنا الطرف عن نفور مونتيني من الكتب والمواد الدراسية والمعارف المقصورة على الحفظ والاستظهار، والالتزام بأشكال القيود كافة، فعلينا الاعتراف بأن مونتيني كان يفتقر إلى مَلَكة الفَهْم والاستيعاب السريع، وهي المَلَكة التي لا تتفجّر شدّتها إلا بعد فترة البلوغ، شأنها شأن كثير من الطبائع البشرية.

في سنوات التكوين الأولى سقطَت هذه الروح، التي صارت

فيما بعد روحًا يقظة رشيقة فضولية، في قبضة حالة من البلادة؛ لنقل نوعًا من الخمول بدا أنه يثقل كاهله، وعن هذا الشعور يقول:

«رغم أني كنت أتمتّع بصحة جيدة، وأني كنت إنسانًا لطيف المعشر، ليّن الطباع، إلا أني كنت خامل الحركة، بليد الذهن، ميّالًا إلى النوم، عاجزًا عن انتزاع نفسي من حالة الكسل حتى وأنا ألعب».

صحيح أنه كان يتحلّى بقدرة على الرصد الحادّ ومراقبة الأشياء مراقبة دقيقة، إلا أن هذه القدرة كانت تتجلّى في وضعٍ وليد اللحظة وفي لحظات نادرة، حيث يقول:

« كنت أتفحّص جيدًا ما أراه، وتحت سطح تلك الطبيعة الخاملة البليدة نمَتْ في أعماقي أفكار وآراء جريئة جاوزتْ سنّي بكثير».

إلا أنّ تأثير هذه اللحظات السعيدة كان تأثيرًا باطنيًا غير مرئي، ولم يكد يلاحظه المعلّمون أنفسهم. ولا يُنحي مونتيني بأيّ حال باللوم على مُعلمّيه في عدم تقديره حقّ قدره، بالعكس، كتبَ شهادة قاسية عن فترة شبابه بقوله:

« كان عقلي بطيء الحركة، ولم يكن يخطو خطوة إلى الأمام إلا بحافزٍ يحثّه. لم تنمُ مَلَكة الفهم عندي إلا في مرحلة متأخّرة، وكانت قدرتي على الابتكار محدودة، فضلًا عن أني كنت أعاني من ذاكرة رديئة على نحو لا يُصدَّق».

الحقيقة ألا أحد يقاسي من وجوده بالمدرسة أكثر مما يقاسي

التلامذة الموهبون، مِمن لا تحسن المدرسة التعاملَ مع مواهبهم ولا الاستفادة من قيمتهم استفادةً مثمرة بسبب أساليبها الجافة العقيمة. ولو كان مونتيني قد أفلح في الهروب من قيود سجن شبابه، فلأنه ـ مثله مثل كثيرين غيره كبلزاك، الذي رسم هذه المسألة رسمًا رائعًا في رواية «لويس لامبيرت»[1] وآخرون بلا حصر ـ، أقول لأنه اكتشف ذلك المفتاح السريّ الداعم والمواسي؛ ألا وهي كتب الأدب جنبًا إلى جنب مع كتب المدرسة. ومثله مثل «لويس لامبيرت» سقطَ مونتيني في غواية القراءة الحرة، ولم يستطع منها فِكاكًا. فأقبل مونتيني الشابّ بحماسة محمومة على قراءة تحولات أوفيد[2]، وإنيادة فرجيل، ومسرحيات تيرينس وبلوتوس في لغتها الأصلية، لغته الأم. المفارقة أن فهم مونتيني العميق للأعمال الكلاسيكية الذي أتاحه له إتقانه اللاتينية، قد حسَّنَ من الصورة التي ذاعت عنه في المدرسة كطالب خامل كسول.

ألَّفَ أحد أساتذته ويدعى جورج بوكانان، الذي سيلعب لاحقًا دورًا محوريًا في تاريخ أسكتلندا، عددًا كبيرًا من المسرحيات التراجيدية باللغة اللاتينية، وقد شارك فيها مونتيني وفي غيرها من المسرحيات بالتمثيل، ولاقى أداؤه المسرحي قبولًا واسعًا، سيّما

---

(١) لويس لامبيرت: رواية منشورة سنة ١٨٣٢ للكاتب الفرنسي الشهير «بلزاك» تقع معظم أحداثها في مدرسة، وتروي حياة وآراء صبي متوقد الذهن مفتون بالفيلسوف الغيبي الماورائي السويدي «إيمانويل سويندينبورج» (المترجم).

(٢) أو مسخ الكائنات بترجمة العلامة ثروت عكاشة (المترجم).

بفضل مهارته في تغيير طبقة صوته فضلًا عن امتلاكه ناصية اللغة اللاتينية على خلفية الدروس التي تلقّاها في وقتٍ مبكّر من حياته.

وبإتمام الثالثة عشرة اعتُبر هذا التلميذ العصيّ على التعلّم قد أنهى تعليمه الأساسي، ليكون مونتيني من الآن فصاعدًا مُدرّس نفسه وتلميذها حتى الرمق الأخير من حياته.

هو نفسه أكّد أنه بإتمام سنّ العشرين يكون قد أكمل تعليمه بصفة نهائية، حيث يقول: **«في اعتقادي أنّ أرواحنا بإتمام العشرين قد استقرّت على ما قُدّر لها أن تستقرّ عليه، وأنها أبانَتْ عما أوتيتْ من مهارات وقدرات، وأنا على يقين من أنّ روحي وجسدي بعد هذه السنّ، قد أخذا في الانكماش بدلًا من النموّ، وفي النكوص بدلًا من التقدّم»**.

لم تصل إلى أيدينا صورة واضحة ترسم ملامح مونتيني في سنوات النضارة والحيوية، لكننا طالما عهدنا في الرجل أن يصف ذاته دائمًا بأقصى قدر من العناية والمتعة والدقّة إلى درجة تدفعنا لأن نثق في وفائه لقول الحقيقة، مما سيمكّننا في النهاية من رسم صورة مُرضِية لملامح وجهه. كانت بنية مونتيني البدنية مائلة للضآلة على نحو لافتٍ مثله كمثل والده، وهي صفة جسدية طالما اعتبرها نـقـصًا أثار الحزن في نفسه، لأن ضآلة جسده، الذي كان أقلّ من المعدل الطبيعي كان يلفت إليه الأنظار من ناحية، ويقلّل من هيبته في أعين الآخرين من ناحية ثانية. إلا أن سمتَه لم يكن يخلو من ملامح أخرى كافية لإظهار حسن المظهر.

كانت له بنية قوية سليمة، ووجه بيضاوي حادّ القسمات، وأنف دقيق ذو منحنيات متناغمة، وجبهة رائقة من التغضنات، وحاجبان مرسومان على شكل قوسيْن جميليْن، وفم ممتلئ فوق لحية كستنائية حسنة التشذيب، تبدو كما لو أنها تخفي نواياه الدفينة. أما العينان اللافتتان للنظر بما تشعّانه من لمعة قوية برّاقة، فلم تُظهِرا النظرة السوداوية الكئيبة التي لازمته في السنوات التالية. أما عن حالته المزاجية فقد كان مونتيني -باعترافه شخصيًا- ميّالًا إلى الهدوء والاتزان حتى في الأوقات التي لا يكون فيها مفعمًا بالحيوية والسعادة.

وبالنسبة لخصال الفروسية من قوة جسمانية وحبّ للرياضة والألعاب، فكان مونتيني يفتقر إلى اللياقة البدنية والنشاط اللذين كان يتمتع بهما والده، الذي كان وهو في الستين من عُمره لا يحتاج سوى الاستناد على إبهامه للوثب فوق الطاولة، وكان في مقدوره ارتقاء ثلاث درجات من السُلم في قفزة واحدة، وهو يصعد إلى قصره. يقول مونتيني:

«لم أتمتّع في يوم من الأيام بالرشاقة ولا المهارة. ولم يُفلحوا قَط في تدريبي على إتقان شيء من الموسيقى أو الغناء أو العزف، حيث كانت تنقصني الموهبة. أما فيما يتّصل بالرقص والكرة والمصارعة فلم يجاوز مستواي يومًا المعدل المتوسّط، بينما فشلتُ فشلًا ذريعًا في تعلّم السباحة والقفز فوق الحواجز والوثب الطويل والمبارزة. كانت أصابعي بليدة حتى أني لم أكن أستطيع قراءة ما كتبته بنفسي،

فكنتُ أفضّلُ إعادة كتابة ما شخطبتُه على الورقة بدلًا من أن أتجشّم عناء توضيحه للآخرين. لم أكن قادرًا على طيّ رسالةٍ بشكل صحيح ولا تهيئة ريشة الكتابة، ولا تحديد ما هو مناسب ليوضعَ على مكتبي، ولا وضع السرج فوق فرسي، ولا إطلاق صقرٍ للطيران من فوق ذراعي، ولا التعامل مع الكلاب والطيور والخيول».

كانت روح مونتيني تنزع إلى التواصل الاجتماعي، وإلى التماس السعادة في صحبة النساء، اللواتي كان منجذبًا إليهنَّ بشدة منذ سنواته الأولى وحتى الرمق الأخير من حياته بحسب كلامه هو شخصيًا. وقد مكّنه هذا «الخيال المفعم بالحيوية = vivacité de l'imagination» على حدّ قوله»، من التعامل مع المشكلات بسهولة بالغة.

يعترف مونتيني أنه بفضل طابع اللا مبالاة المجبول عليه، ينتمي إلى طينة الأشخاص الذين قد تُظهِر ملابسهم الفاخرة طلّة عابسة، لأنه دائم البحث عن متعة الصحبة ودفء الصداقة. كانت متعته الحقيقية هي المناقشات والمسامرات. المناقشات على طريقة لعبة المبارزة بسيوف الشيش، وهو لا يعني هنا المبارزة التي تورثُ الشجار والمشاحنة. حيث كان الذهن الرائق المعتدل يضبط على الدوام نوبات الانفعال السريعة والعاطفية للدماء الحامية المعهودة في طباع أبناء جاسكوني.

كان هذا هو سَمتُ مونتيني الذي كان يشعر بالنفور من كل طبع

خشن، ويملؤه الذعر من كل سلوك وحشي، ويسيطر على الأسى من كل نظرة بؤس يراها في أعين الآخرين. قبل اكتساب حكمته التأملية لم يكن يملك الشابّ مونتيني آنذاك إلا الحكمة الفطرية التي لا تعرف إلا حبّ الحياة، وحبّ نفسه داخل هذه الحياة.

لم يكن رأيه قد استقرَّ على غاية واضحة ولا هدف محدد، ولم تضطرم بداخله موهبة جليّة أو حتى خفية تسعى إلى الظهور على السطح. ومن هنا راح الشابّ العشريني يتطلع إلى العالم بعينين مملوئتين فضولًا وحيرة، متفكرًا فيما ستعطيه الدنيا وما سيعطيه هو للدنيا.

(٤)

كان يوم وفاة الأب بيير إيكويم في سنة ١٥٦٨ لحظة مفصلية حاسمة في حياة مونتيني، فحتى ذلك التاريخ كان مونتيني يعيش مع أبيه وأمّه وزوجته وأشقائه وشقيقاته في القلعة التي دأب على تسميتها، مدفوعًا بانفعال عاطفي، «قصرَ أسلافه» في الوقت الذي لم يولِ أيَ عناية للحفاظ على ثروة أسلافه أو التجارة أو الأعمال.

وبوفاة الوالد ستؤول إليه ثروة هائلة. وبصفته الذَكَر البِكر سيؤول إليه لقب النبالة وسيتقاضى معاشًا قدره عشرة آلاف ليرة فرنسية، كما سينتقل إليه عبء المسؤولية عن جميع الأملاك. ستتقاضى الأمّ مؤخَر الصداق، بينما سيضطلَع مونتيني بصفته كبير العائلة بمسؤولية إدارة شؤون الأعمال الصغيرة المقدّرة بالمئات، والإشراف على الحسابات اليومية، أو على الأقلّ مراجعتها، وهو الذي كان يتوانى فيما مضى عن العناية بأبسط شؤونه الشخصية.

لم يكن هناك شيء أبغض إلى نفسه من العمل النظامي، ولا من الشعور بالمسؤولية والمثابرة والجَلَد والاجتهاد، وفي المُجمل أيَ سلوكيات تأخذ طابعًا نظاميًا.

يعترف مونتيني بأريحية بأنّه ظلّ حتى منتصف حياته قليل الاكتراث بكيفية إدارة شؤون المنزل. يعترف مالك العقارات والغابات والمروج وبساتين العنب بلا مواربة:

«ليس في مقدوري التمييز بين نوع من الحبوب ونوعٍ آخر، لا في الحقل ولا في المخازن، ما لم يكن الاختلاف بين النوعين واضحًا وضوح الشمس. ولم أكن أدري إذا ما كان المزروع في حديقتي ملفوفًا أم خَسًا، ولا أعرف حتى أسماء أهم الأدوات الزراعية التي يعرفها كل طفل. ولم يكد ينقضي شهرٌ حتى يُقبض عليَّ متلبسًا بجهل مطبق حول سبب إضافة «الخميرة إلى عجين الخبز، أو ما الذي يجري عندما يخلطون الكروم داخل البراميل».

ولم يكن انعدام خبرة مالك العقارات بالآلات الزراعية كالمجارف، بأفضل حالًا من انعدام خبرته في إدارة الشؤون المالية والإدارية للضيعة، حيث يقول:

«لم أستطع يومًا إجبار نفسي على قراءة العقود ولا مراجعة الاتفاقات التي كان يجب أن تمرَّ على مكتبي لأدقّقَ النظر فيها بنفسي. والحقيقة أنني لم أفعل ذلك عن ازدراء فلسفي للمسائل الدنيوية العابرة، بل عن تكاسل طفوليّ لا يُغتفر وإهمال جسيم متجذّر في طبعي. كنتُ أفضلُّ الجلوس هكذا لا أفعل شيئًا على مراجعة أحد العقود».

كانت التركة في حد ذاتها موضع ترحيب بالنسبة إلى مونتيني، لأنها الدجاجة التي تبيض ذهبًا وتضمن له استقلاله. إلا أنه كان

يرغب في الثروة من دون السهر على رعايتها، حيث يقول: «**كنت أودُّ دائمًا أن تُخفى عن عيني أرقام الخسائر وحقيقة الأزمات التي تتكبدّها تجارتي**».

ولما وُلدتْ ابنته الأولى تاق إلى اليوم الذي سيرفَع فيه عنه صهرُه المستقبلي ثِقَل هذه الأعباء والهموم. أرادَ مونتيني إدارة الضيعة مثلما يدير شؤون السياسة وكل شؤون الحياة؛ كيفما اتفق، ووقتما يحلو له، بإصبعه الأصغر، من دون الانغماس في مشاركة فاعلة. كان يعرف أن الثروة نعمة مشؤومة، وهي نعمة يتحتَّم الدفاع عنها يومًا بيوم، وساعة بساعة، إذ يقول:

«**كنت سأصير راضيًا قانعًا لو أنني استبدلتُ الحياة المتقشّفة بالحياة المُنعَّمة التي أحياها الآن، وددتُ لو أني عشتُ حياة أقلّ تُخمة بضغوط العمل**».

وكيما يخفّف عن نفسه هذا العبء الذهبي الذي يثقل كاهله، قرَّر مونتيني التخلّص من بعضه. حيث دفعه طموحُ والده السياسي إلى خوض غمار الحياة العامة، إذ عمل الوالد لمدة خمسة عشر سنة في المجلس الأدنى من البرلمان[1] ولم يحرز تقدمًا أكثر من ذلك. وهكذا، وبعد وفاة والده لم يجد مونتيني إلا القَدَر ليطرح عليه هذا السؤال، فبعد أن صار عاشر من يشغل منصب رئيس مجلس التحقيق، قدَّم أوراق ترشّحه للترقية إلى المجلس الأعلى.

(١) المجلس الأدنى هو واحد من غرفتين في البرلمانات المكونة من مجلسين، يطلق على الغرفة الأخرى المجلس الأعلى (المترجم).

برغم ذلك، وفي الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٥٦٩ قرّر المجلس إقالة مونتيني، متذرّعًا بأن والد زوجته كان مستشارًا للمجلس الأعلى. صحيح أن القرار لم يكن في صالحه، إلا أنّه عاد عليه بالنفع بالمعنى الأرحب للكلمة، لأنه أعطى مونتيني سببًا أو مسوّغًا مقبولًا لأن يستقيل من الخدمة المدنية بلا عودة.

تقدّم مونتيني بالاستقالة من منصبه، أو بالأحرى تخلّى عن منصبه ليكرّس نفسه لخدمة الناس من الآن فصاعدًا، خدمة أجَلّ شأنًا وفق رؤيته الخاصة؛ أن يخدمهم حسبما تتيح الظروف وعندما تستهويه مهمة بعينها. من الصعب التكهّن عما إذا كانت هناك أسباب مجهولة وراء الستار كانت الباعث وراء اتخاذ قرار الانسحاب إلى الحياة الخاصة.

أيًا ما كان الأمر، لا بد أن مونتيني قد أحسّ بضرورة اتخاذ قرار ما، برغم أنه رجل ينفر من اتخاذ القرارات من الأساس. كان الجوّ السياسي العام مسمومًا بعد أن رفع البروتستانت السلاح مرة أخرى مع اقتراب عيد القديس «بارثولوميو». مستلهمًا روح صديقه الصدوق «لا بوتيه» رأى مونتيني أن مهمته السياسية الوحيدة هي العمل لترسيخ قيم المصالحة والتسامح.

يمكننا القول إن مونتيني جُبِلَ بحكم طبيعته على أن يلعب بمهارة دور الوسيط بين أطراف متحاربة، وكانت مهمته الحقيقية في سلك الخدمة المدنية تكمن على الدوام في القيام بدور الوسيط في

المفاوضات السرية. إلا أنّ هذه الفترة لم تكن أوقات المفاوضات، بل فترة (إما/أو). على فرنسا أن تكون «هوغونوتية»[بروتيستانتية] وإما أن تكون كاثوليكية.

كانت السنوات القليلة المقبلة تضع مسؤولية جسيمة على عاتق كل مهتمّ بالشأن العام للبلاد، في حين أن مونتيني هو العدوّ اللدود لكل ما يمت بصلة إلى المسؤولية بوصفه رجلًا يريد تجنّب اتخاذ القرارات. في أوقات التعصّب كان الرجل الحكيم يلوذ بالانسحاب وبالفرار.

ولما أتمَّ عامه الثامن والثلاثين قرَّر التقاعد من منصبه الرسمي. كانت غاية همّه أن يسهر على خدمة نفسه فقط، بعد أن سئم السياسة والحياة العامة والتجارة. وكانت هذه هي لحظة خيبة رجائه في الدنيا. كان على معرفة تامة بأنه أقلّ شأنًا من أبيه سواء من ناحية المظهر أو من ناحية المكانة الاجتماعية على مسرح الحياة العامة. كان موظفًا عموميًا أقلَّ شأنًا، وزوجًا أقلَّ شأنًا، وإداريًا أقلَّ شأنًا. ولكن أيّ نوع من الرجال هو الآن؟

انتابه شعور بأن حياته السابقة قد ذهبت أدراج الرياح، وحان الوقت لأن يعيش حياة حقيقية، أن يُمعِنَ التفكير وأن يتأمّل. حداه أملٌ قوي في العثور على حل لمشكلة «الحياة والموت» داخل بطون الكتب. وكيما يقطع على نفسه طريق العودة إلى العالَم لو جاز لنا التعبير، حفر نقشًا باللاتينية على جدار مكتبته يقول:

«في سنة ١٥٧١ من ميلاد المسيح، وفي سنّ السابعة والثلاثين، وعشية غرّة شهر مارس، الموافق ليلة عيد ميلاد ميشيل دي مونتيني، الرجل الذي سئم عبودية الخدمة في البلاط الملكي وأعباء المناصب العامة، لكنه ما يزال في أوج قوته، قرّر أن يضع رأسه مستريحًا في أحضان ربّات الإلهام ـ إلهات الفنّ والإلهام المعروفات باسم الميوزات ـ عاقدًا العزم على أن يُمضي ما تبقّى من حياةٍ انقضى معظمها بالفعل، في هدوء وراحة بال. ولو سمحت له الأقدار فسيُكمل ما تبقّى من حياته في هذه البقعة، محتفظًا بهذا المسكن وهذا المأوى الآمن المملوك لأبيه، مُكرّسًا إياه لسكينته وحريته وراحة باله».

لم تكن هذه الرسالة مجرد رسالة وداع للمنصب، وإنما رسالة وداع ورفض للعالم الخارجي. فحتى هذه اللحظة كان مونتيني قد عاش حياته للآخرين، وآن الأوان لأن يعيش لنفسه. وحتى هذه اللحظة لم يفعل الرجل إلا ما كانت تُمليه عليه الوظيفة وشؤون الضيعة وأوامر أبيه. وآن الأوان لأن يفعل ما يُسعده هو. لأنه في الماضي حيثما أرادَ المساعدة كان مصيره الفشل المحقق، وحيثما نشدَ بلوغ هدفٍ سُدَّت في وجهه السبل، وحيثما أراد إسداء النُصح والمشورة لم يلقَ من الآخرين إلا الإعراض والتجاهل.

كانت قد اجتمعَتْ لديه حصيلة من الخبرات والتجارب، فحانت اللحظة التي ينبغي فيها أن يعثر على معنى تلك التجارب وأن يجني ثمارها.

عاش ميشيل دي مونتيني ثمانٍ وثلاثين سنة، وفي هذا اللحظة أراد أن يعرف منْ هو ميشيل دي مونتيني على حقيقته. لم يكن الانسحاب إلى منزله وإلى حياته الخاصة كافيًا في نظره. فبرغم امتلاكه المنزل بحكم الإرث والقانون، إلا أنه أحسَّ بأنه كان مسؤولًا عما هو أكبر من ذلك؛ فهناك زوجته، وهناك أمه وأطفاله الذين لم يشكّلوا أهمية خاصة عنده.

ثمّة مقطع لافت يعترف فيه مونتيني بأنه لا يعرف عدد أطفاله الذين قضوا نحبهم، زِدْ على ذلك الموظّفين والمستأجرين والمزارعين، الذين كانوا يحتاجون منه إلى أن يشملهم دومًا بعين الرعاية والاهتمام.

ليس من الضرورة أن يعيش أفراد الأسرة في وئام في كل وقت، فالمنزل مزدحم، في حين أنه يطلب العزلة والاختلاء. كان كلّ ذلك في عينيه كريهًا، مثيرًا للإزعاج، باعثًا على القلق. بينما كان مونتيني يفكّر كما يفكّر مثله الأعلى «لابوتييه»، ومتبنيًا فضيلته حيث يقول: **«كان لابوتييه طوال حياته يزدري رماد موقد منزله»**.

إلا أن مونتيني لم يتخلَّ عن منصبه الرسمي لكي يثقل كاهله بمزيدٍ من هموم الحياة اليومية التافهة باعتباره رجل العائلة. كان يريد أن يعطي ما لقيصر لقيصر، ثمّ يقف عند هذا الحد.

كان يريد أن يُفرِغَ نفسه للقراءة والتفكير والاستمتاع بالحياة. لم يكن يريد أن تشغله الشواغل، بل أن ينشغل بذاته. كان مرادُ مونتيني

هو ذاته الداخلية الأعمق غير المنتمية إلى دولة أو عائلة أو زمن أو ظروف أو ثروة أو أراضٍ. تلك الأنا التي أسماها جوته القلعة، المحظور دخولها على أحدٍ سواه. ولم تكن الاستقالة من الوظيفة العمومية ولزوم المنزل سوى أول خطوة من خطوات الانسحاب، وها قد آن أوان الانسحاب الثاني من هموم العائلة، ومتطلبات الثروة والتجارة، للدخول إلى القلعة للمرة الثانية.

المفارقة أن هذه القلعة التي قصَدَها جوته بشكل رمزي، خَلقَها ميشيل دي مونتيني وشيدَها بالفعل بنفسه من الحجارة والأقفال والمزاليج. إلا أننا نستطيع اليوم بالكاد تصوّر كيف كانت تبدو آنذاك، حيث أُعيدَ تشييد القلعة مرات عدة في أوقات لاحقة. وفي سنة ١٨٨٢ أتى حريق هائل على مباني القصر بأكملها، اللهم إلا قلعة مونتيني، أو برجه المشهور.

عندما آلتْ ملكية المنزل إلى ميشيل دي مونتيني، وجد الرجل برجًا دائريًا مرتفعًا، يبدو أن والده قد شيّده لأغراض التحصين. كان الطابق الأرضي معتم الإضاءة مشتملًا على كنيسة صغيرة عُلقَّتْ على جدرانها لوحة جدارية للقديس ميخائيل وهو يقتل التنين. وكانت تضمُّ كذلك سلّمًا حلزونيًا ضيّقًا يفضي إلى غرفة في الطابق الأول، وقد وقع عليها اختياره لتكون غرفة نومه بسبب موقعها المنعزل المتميّز. كان الطابق العلوي يضمّ أقلّ غرف البرج نفعًا، أو لنقل كانت غرفة الأغراض المهملة، لكنها تحوّلت لاحقًا إلى أهم بقعة في المنزل برمته.

انعقد عزم مونتيني على تحويل هذه الغرفة إلى غرفة للتأمّل، وأتاح له موقعها إطلالة بانورامية على قصره وبساتينه. فكان يستطيع من موقعه رصد ومراقبة كل ما يحدث لو انتابه الفضول، من حيث لا يراه أحد، ومن دون أن يعكّر عليه مخلوق صفو عزلته.

كانت الغرفة من سعة المساحة ما يُمَكِّنه من ذرعها ذهابًا وإيابًا، حيث كان يقول إنه لا يقدر على التفكير تفكيرًا سليمًا إلا وهو يمشي. ثم أنشأ المكتبة التي ورثها عن صديقه لابوتييه، ونقش على عوارض السقف ما يربو على أربعة وخمسين اقتباسًا باللغة اللاتينية حتى يقع بصره على كلمات حكيمة باعثة على السكينة إذا ما تصادف وتسكّع بهدوء في أرجاء الغرفة. أما الاقتباس الأخير من بين الأربعة وخمسين اقتباسًا فُنقِشَ بالفرنسية وكان يقول: ماذا أعرف؟

إلى جوار هذه الغرفة غرفة أصغر مخصصة للإقامة في فصل الشتاء، زُيّنت جدرانها ببعض اللوحات التي أزيلَتْ لاحقًا لسخافة ذوقها في أعين الأجيال اللاحقة. كانت هذه العزلة بما تحويه من اقتباسات تزيّن الأسقف، مسكونة بفخامةٍ ولمسة فنية واضحة، مما يولّد لدينا انطباعًا بأن مونتيني إنما أراد من ورائها أن يهيء نفسه وأن يوطنّها على الوحدة.

ولمّا كان الرجل غير خاضع لعهد ديني أو قَسَم مثل الذي يقطعه النُسّاك والرهبان، فقد أراد شيئًا يتعلّق به ويُجبر عليه نفسَه. ربما لم

يكن مونتيني نفسه يعرف سبب ذلك، لكنّ إرادة باطنية كانت تدفعه إلى أن يسلك هذا المسلك. كانت هذه العزلة هي البداية، لا أكثر. والآن وقد بدأ التوقّف عن العيش للآخرين، فقد بدأت حياة الإبداع الحقيقية.

هنا داخل هذا البرج، صار مونتيني هو مونتيني.

(٥)

وأسمى سعادة للرجل المفكّر

هي أن يستكشف ما هو قابل للاكتشاف

وأن ينحني بصمتٍ إجلالًا

لما هو عصيّ على الاكتشاف

جوته

على مدار السنوات العشر التالية أمضى ميشيل دي مونتيني أغلب حياته داخل هذا البرج. فما هي إلا بضع درجات صعودًا إلى السُلّم الحلزوني حتى ينقطع عنه ضجيج المنزل وأحاديثه، وتنقطع أواصر الصِلة بينه وبين الأمور التي تعكر صفوه. والسبب على حد تعبيره: «لأن في صدري قلبًا رقيقًا سريع الاضطراب، لو انشغل بأمر ما ستقتله ذبابة حائمة».

لو نظر من النافذة سيرى الحديقة، والفناء وساكني القصر، بينما

لا يحيطه داخل هذه الغرفة المستديرة إلا كتبه التي ورث جزءًا كبيرًا منها من صديقه «لابوتييه»، واقتنى هو الجزء الآخر. ذلك لا يعني أنه كان يصرف كلَّ وقته في القراءة، لكن الشعور بوجود الكتب إلى جواره كان يشيع السعادة في قلبه. يقول مونتيني:

«يرضيني مجرد معرفتي بقدرتي على الاستمتاع بالكتب متى رغبتُ في ذلك. لا أسافر من دون اصطحاب كتب أبدًا، سواء في أوقات الحرب أو في أوقات السلم، لكن ما يحدث أن الأيام والشهور تنقضي من دون أن تسنح لي فرصة النظر فيها. أقول في نفسي: لكني حتمًا سأقرؤها في يوم من الأيام، ربما غدًا، أو حينما أرغب في ذلك. تعلّمتُ أن الكتب هي أفضل زادٍ يمكنك أن تتزوّد به في رحلة حياتك».

لم تكن الكتب بالنسبة إليه ثقيلة الظلّ مثل الأشخاص الذين يضايقونه أو يتملقّونه ويصعب التخلّص منهم، فالكتب رهن إشارتكَ، لو لم تطلبها لن تأتي إليكَ، في مقدورك أن تسحب هذا الكتاب أو ذاك بحسب مزاجكَ.

«مكتبتي هي مملكتي، مملكة أحاول أن أحكمها كحاكم مطلق»، هكذا قال مونتيني.

تخبره الكتب برأيها فيردُّ هو برأيه. تفصح عن أفكارها فتحفّزه على ابتكار أفكاره. لا تزعجه حينما يصمت، ولا تنطق إلا عندما تُسأل. هنا تقع مملكته التي تسهر على سعادته. حكى لنا مونتيني في سردٍ رائع منقطع النظير كيف كان يقرأ وماذا أحبَّ أن يقرأ.

كانت علاقته بالكتب مثل علاقته بكل شيء، علاقة قوامها الحرية، ولا تعرف الالتزامات. كان يقرأ ويتعلّم بحسب ما يشاء، وبقدر ما تُشعره القراءة بالسعادة. في ريعان شبابه كان يقرأ على حد قوله: «للتباهي بالمعرفة، وفي مرحلة لاحقة كنت أقرأ للتحلّي بقدر أكبر من الحكمة، أما الآن فأقرأ بهدف المتعة الخالصة، لا لجلب أية منفعة أخرى». فلو وجد كتابًا مُملًا أسرع إلى إغلاقه وفتح كتابٍ آخر. ولو استعصى عليه فهم شيء في كتاب، يقول:

«لا أقضم أظافري للوقوف على معنى الفقرات العويصة داخل الكتاب، بل أكتفي بأن أعاجِلَها بهجمة أو اثنتين ثم ألوذ بالاستسلام، لأن عقلي مُهيأ للوثب فوق الصفحات فقط. ولو لم أفهم شيئًا من المحاولة الأولى فلن يجدي نفعًا المزيد من المحاولات، بل إن هذه المحاولات تعقّد الأمور أكثر. في اللحظة التي تغدو فيها القراءة عملية مُرهقة يسقط الكتاب من يد القارئ العادي، لا يتحتّم عليّ أن أتصبّب عرقًا إذ أقرأ كتابًا، ولو حدث ذلك أضع الكتاب جانبًا متى شئت أن أفعل».

لم يَلزمْ مونتيني البرج ليصير عالمًا أو دارسًا، ولم يكن يلتمس من الكتب إلا أن تحفزّه وأن تُعلّمه عبر التحفيز فقط. كانت نفسه تنفر من كل شيء مُمنهج، ومن كل ما يسعى إلى أن يُملي عليه رأيًا أو يفرض عليه معرفة. كان كل كتاب مدرسيّ يثير اشمئزازه، إذ يقول:

«أختارُ الكتب التي أرى فيها تطبيق العلم والمعرفة، لا الكتب الذي تؤدي إلى العلم والمعرفة».

لم نشهد سواء في عصره ولا في أيٍّ من العصور قارئًا كسولًا، هاويًا مثله، ولا قارئًا أشدَّ حكمة وحصافة منه. إن أحكام مونتيني على الكتب جديرة بالتأييد الأعمى.

بوجه عام كان عنده شغفٌ بشيئين: الشعر الرائق المطبوع برغم افتقاره إلى موهبة قرض الشعر، معترفًا بأن الأبيات التي حاول كتابتها باللاتينية كانت مجرد معارضة وتقليد لما قرأه.

كان مونتيني مفتونًا بفنّ اللغة، لكنه كان مفتونًا بالقدر نفسه بالشعر الشعبي البسيط. أما ما يقع في المنزلة بين منزلتيْن، أي ما هو نثر ويغيض فيه ماء الشِعر الخالص، فلم يكن يمسُّ قلبه. ولئن كان مونتيني يحبُّ الخيال من ناحية، فقد كان مولعًا بالحقائق من ناحية ثانية، ولهذا السبب كان علم التاريخ هو «اللعبة التي تغويه» على حد قوله. ومَثله كمثلنا هذه الأيام، كان الرجل يحب الجانب المتطرّف منه، إذ يقول: «**أحبُّ إما المؤرخين المغرقين في البساطة وإما المؤرخين ذوي المرتبة الممتازة**».

كان يحب المؤرخين من أمثال «فروسارت»[1]، أي أولئك الذين لا يعرضون في أعمالهم إلا المادة الخام للتاريخ. كما كان يحبُّ المؤرخين الممتازين المتسلّحين بمعرفة نفسية معمقة، والقادرين على تمحيص المادة التاريخية ليميزوا الغثَّ من السمين والكذب من الكذب، وهذا موطن قوة لا يتوفّر إلا عند قلّة قليلة. لذا - والكلام

(١) المقصود هو «جين فروسات»، مؤرخ فرنسي كتبَ عن فترة القرون الوسطى (المترجم).

هنا لمونتيني: «**يُشير كُتّاب السير الذاتية شهيتي للقراءة، لأنهم يعيرون اهتمامهم إلى الدوافع الدخيلة أكثر من اهتمامهم بالوقائع المجردة، وهذا هو السبب في أن بلوتاريخ هو بطلي الأثير**».

أما المؤرخون الآخرون الذين يحتلون منزلة بين منزلتيْن، فلا هم فنانين ولا هم بسطاء الأسلوب فيفسدون كل شيء، أو على حد تعبيره:

«**لأنهم يمضغون لنا التاريخ، فيمنحون لأنفسهم الحقَّ في إصدار الأحكام على التاريخ وليَّ عنق الحقائق كي تلائم أهواءهم**».

لذا كان يحبّ عالم الصور والرموز داخل القصيدة، مثلما يحبُّ عالم الحقائق داخل النثر. إما الفنّ الأرقى وإما اللا فنّ على الإطلاق. كان يحبُّ الشاعر أو المؤرخ البسيط، أما الباقي فهو «أدب خالص على حد تعبير فيرلين».

كانت أهم الدروس التي اكتسبها مونتيني من الغرق في الكتب هو أن القراءة تُذكي لديه مَلَكَة الحُكم، وتحفّزه على الإجابة عن الأسئلة، وتشجّعه على الإفصاح عن رأيه إفصاحًا لا مواربة فيه. ومن ثمَّ دأبَ على تزويد الكتب بهوامش وحواشٍ، وعلى وضْع خطوطٍ أسفل الجُمل، وتدوين تاريخ قراءة الكتاب الذي بين يديه، أو كتابة الانطباع الذي تركه الكتابُ عنده عندما قرأه.

ولم يكن ذلك لونًا من ألوان ممارسة النقد، لأن الرجل لم يكن

قد بدأ الكتابة من الأساس. كان مجرّد حوار بالريشة التي يحملها بين يديه، شيء أبعد ما يكون عن الكتابة. لكن الوحدة كانت قد بدأتْ تلحُّ عليه شيئًا فشيئًا، وكان صخب الأصوات الصامتة للكتب يلحُّ عليه أكثر فأكثر.

ولبلوغ إجابة، وبغية السيطرة على أفكاره شَرع في كتابة بعضها. فُولِدَ نشاطٌ متوقّد من رحم القراءة الخاملة. لم يكن مونتيني يبحث عن هذه المهمة، بل هي مَنْ بحثت عنه ووجدته، إذ يقول:

«عندما تقاعدتُ في منزلي كنت قد اتخذتُ قرارًا بألا أدسّ أنفي في أيّ شأن من الشؤون ما وسعني، وبأن أمضي الوقت القليل المتبقّي في الدنيا في سلام وعزلة. ثمّ بدا لي أني لا أملك وسيلة لإرضاء ذهني أفضل من السماح لعقلي بالانغماس التامّ في أفكاره الخاصة والتسرية عن نفسه. وكنت أومل أن يكون عقلي قادرًا على الاضطلاع بهذه المهمة بسهولة كلما مـرَّت الأيام وكلما صار عقلي أشدَّ صلابة ونضوجًا. لكن العكس هو ما حدث. مثله كمثل حصان أُطلِـقَ له العنان، أعطَى عقلي لنفسه مساحةً إضافية بمقدار منة ضعف. تشكّـل في أعماقي حشد كامل من المخلوقات الوهمية والكائنات الخيالية، واحدًا تلو الآخر، بلا نظام أو صِلة تربطهم بعضهم. وكيما أستطيع تدبّر غـرابة وعبثية هذه الأشياء تدبرًا أفضل بعقل هادىء، شرعتُ في وضعها على الورق، مؤملًا أن يستحيي عقلي من نفسه سريعًا، فالعقل الذي لا يضع نصبَ عينيه هدفًا محددًا، هو عقلٌ ضال. ومن يريد أن يملأ كل مكان لن يكون له وجود في أي مكان. لـن تخدم الريحُ رجلًا لا مرفأ له».

كانت الأفكار تنهب رأسه فيفزع إلى تدوينها من دون التزام بأيّ شيء نحوها. آنذاك كان طبع هذه المقالات (المحاولات)[1] أبعد ما يكون عن رأس سيّد قصر مونتيني.

«عندما ألعب بأفكاري هنا وهناك مثل عيّنة مقصوصة من ثوب قماش، فتُحاك في لُحمة واحدة بدون خطة أو نظام، لا أجدُ نفسي مضطرًا إلى تحمّل المسؤولية عنها ولا الالتزام بها. ويكون بمقدوري إسقاطها من حساباتي متى شئتُ، ويكون بمقدوري العودة إلى شكوكي وحيرتي، وإلى الشكل المهيمن على عقلي: الجهل».

كان يشعر بأنه غير ملزَم مثل عالم مُلزَم بالدقة أو كاتب مُلزَم بالأصالة أو شاعر مُلزَم بنَصاعة التعبير. لَم ينطلق من افتراضيةً الفلاسفة أن الأفكار مملوكة لأصحابها حصرًا، ومن ثم لَمَ يرَ ضيرًا في إعادة صوغ ما سبق وأن قرأه للتوّ عند شيشرون أو سينيكا.

«غالبًا ما أترك للآخرين فرصة أن يقولوا ما أعجزُ عن قوله بلساني، أنا لا أحصي اقتباساتي من الآخرين، بل أضعها في الميزان».

لذا كان يتجاهل عمدًا ذِكرَ أسماء من ينقل عنهم، ولا يرى غضاضة في الاعتراف بذلك بكل أريحية، فكان يفرح لو نجح في سرقة شيء وتغييره وإلباسه حُلّة جديدة، صائغًا مما يقرأ شيئًا مختلفًا

---

(١) تجدر الإشارة إلى المقالات، وفي الأصل الفرنسي Essais، قرينة المحاولات،Essayer ،وهي كلمة فرنسية معناها يحاول، وفي الإنجليزية من بين مرادفات الفعل to essay:(to attempt, to try, to venture)، وكلها ظلال دلالية لمعاني المحاولة وبذل الجهد وخوض التجربة (المترجم).

ذا قيمة مضافة. إنه مجرد «سطح عاكس للأشياء»، وليس كاتبًا أصيلًا، ولا يأخذ ما يسوّد به الأوراق على مأخذ الجد، إذ يقول:

«نيّتي هي أن أمضي بقية حياتي في هدوء وسلام، لا في عملٍ شاق، ليس عندي ما أقلق بشأنه، ولا حتى في خدمة العلم».

لا يتوقف مونتيني عن أن يكرّر توقَه إلى الحريّة، فهو ليس فيلسوفًا ولا كاتبًا ولا فنانًا بارعًا، ولا ينبغي لما يقوله، أو يقتبسه أن يتحوّل إلى مثال، ولا إلى مرجعية أو إلى نموذج يُحتذى به، فيقول:

«لا تروق لي الهوامش التي أدوّنها البتة، وعندما أعاود قراءتها تثير اشمئزازي».

على حدّ قوله لو كان ثمة قانون يحاكم الكُتّاب الفاشلين المتجرّئين على الكتابة مثلما يحاكم المتشردين والعاطلين، لطردهم وطردَ نفسه والمئات من أمثاله من هذه المملكة. إلا أنه عبر تأكيده المتواصل على رداءة كتابته وتراخيه، وضعف معرفته بقواعد اللغة [الفرنسية]، ووهَن ذاكرته وافتقاره إلى القدرة على التعبير تعبيرًا واضحًا عما يودُّ قوله، ينمُّ كلامه عن شيء من غرورٍ دفين.

«أستطيع أن أمتهنَ أية مهنة إلا أن أكون مؤلّف كتب. وظيفتي هي تشكيل حياتي، تلك هي مهنتي الوحيدة ومهمتي الوحيدة».

لا يسأم مونتيني من تصوير نفسه على أنه ليس كاتبًا حقيقيًا، وأنه مجرد رجل أرستقراطي نبيل لا يعرف ماذا يصنع بوقته، فينصرف

إلى تدوين أفكاره من حين إلى آخر تدوينًا عشوائيًا لا يربط بين أجزائه رابط. علينا الاعتراف أنّ الحال كان هكذا في السنوات الأولى لكتابة المقالات في نسختها الأولى. والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه: لماذا قرّرَ السيد النبيل مونتيني طباعة هذه «المحاولات» في مدينة بوردو في مجلديْن في سنة ١٥٨٠؟ فتحوّل إلى كاتب من دون أن يعرف ذلك، وكأنّ طباعة الكتاب هي التي صنعتْ منه كاتبًا.

الجمهور مرآة. وكل إنسان يُظهِر وجهًا مختلفًا عندما يشعر أنه محطّ أنظار الجمهور. حقيقة الأمر أنه حالما نشر المُجلّدين الأول والثاني من المقالات، بدأ مونتيني في الكتابة للآخرين، لا لنفسه فقط. حيث بدأ الرجل في إعادة صياغة المقالات وتنقيحها وتطويرها، فأضاف مجلّدًا ثالثًا إلى المجلدين الأول والثاني في سنة ١٥٨٨، حيث تُظهِر طبعة بوردو الشهيرة نسخة جديدة مزيدة ومنقحة، توضّح لنا كيف أن الرجل بقي يواصل صَقلَ كل تعبير وتغيير علامات الترقيم حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

أما الإصدارات اللاحقة فقد اشتملتْ على حشوَ وإسهاب يجلّ عن الحصر، وامتلأت صفحاتها باقتباسات وشواهد كثيرة. ويبدو أن مونتيني أحسَّ بأهمية أن يُظهر للناس سعة إطلاعه، واضعًا ذاتَه دائمًا في بؤرة الاهتمام. وبينما كان يبذل جهده فيما مضى للتعرّف على نفسه، صار همّه بعد النشر أن يُعـرِّفَ الناس مَن هو مونتيني. كان همّه أن يرسم صورة لذاته، وقد نجحَ في رسم صورة ذاته ببراعة فائقة، وإن اعتورت ملامحها بعض أوجه النقصان.

بوجه عام نستطيع القول إن النسخة الأولى من المقالات، التي لم تُخبِر عنه إلا القليل، قالتْ عنه الشيء الوافي في نظرنا. حيث كانت صورة ذات مونتيني الحقيقية، مونتيني ساكن البرج، الرجل الباحث عن نفسه. كانت هذه المقالات «في نسختها الأولى» تشتمل على قدْرٍ أكبر من الحرية ومساحة أوسع من الصدق مع الذات؛ لكن حتى أشدّ الرجال حكمة لا ينجو من فخّ الإغواء وأكثرهم حريّة لا يخلو من القيود.

(٦)

لا يسأم مونتيني البتة من الشكوى مِن ضعف ذاكرته المزمن، وكان يرى في هذا الضعف -وبشكل لا يخلو من تبلّد- بأنه أسوأ عيوبه. حيث كان الرجل يتمتّع بعقلٍ وقوة إدراك غير عاديين. كانت عيناه الأشبه بعينيّ الصقر ترصدان كل ما يراه ويدركه ويتنبّه له ويتعرّف عليه. لكن كسَله، وهو ما استمرّ يلوم نفسه عليه دائمًا وأبدًا، كان يحول بينه وبين ترتيب هذه المعلومات ترتيبًا منظمًا، وتطويرها تطويرًا محكمًا. كانت كل فكرة تتسرّب من بين يديه وتُنسَى بمجرد أن يفهمها.

كان ينسى مضمون الكتب التي يقرؤها، والتواريخ التي يدوّنها، ولا يكاد يتذكّر أهمّ أحداث حياته. كان كل شيء يسري على صفحة ذاكرته سريان ماء النهر، فلا يخلّف وراءه أثرًا أو فكرة راسخة أو رؤية ثابتة، لا شيء يثبت ولا شيء يبقى.

والحقيقة أن نقطة الضعف التي كان مونتيني يأسى عليها، هي موطن قوته. لأن عجزه عن الوقوف عند نقطة بعينها كان يجبره على المضيّ قُدمًا. لم تكن كلمة النهاية من مفردات معجمه. لم يكن من

طينة الرجال الذين يركنون إلى تجارب الماضي، ولا الذين يستندون إلى رأس مال فكري يتغذّون عليه، بل كان من فئة البشر الذين يجب أن تغزو عقولَهم الأشياءَ مرارًا وتكرارًا. ومن ثم كانت حياته عملية متواصلة لا تتوقّف عن التجدّد.

«بلا انقطاع نبدأ في كل مرة العيش من جديد».

فالحقائق التي عثر عليها اليوم لن تمسي حقائق بحلول السنة المقبلة، بل وربما ولا حتى الشهر المقبل، ومن ثمّ كان عليه أن يعيد الكَـرَّة في كل مرة، ومن هنا تنشأ التناقضات. فيبدو تارة أبيقوريًا، وتارة رواقيًا، وتارة متشككًا. هو كل شيء ولا شيء البتة. دائمًا ما يصير رجلًا آخر ويكون هو نفسه في آن واحد، إنه مونتيني سنوات ١٥٥٠، ١٥٦٠، ١٥٧٠، ١٥٨٠، وهو مونتيني الأمس.

كانت متعة مونتيني الحقيقية هي البحث، لا العثور. لم يكن من طينة الفلاسفة الذين يفتشّون عن حجر الفيلسوف، ولا عن معادلة موحّدة لكل شيء. لم يكن يبحث عن عقيدة جامدة ولا عن تعاليم ثابتة. كان يخشى باستمرار من المزاعم المتحجّرة.

«لا تـزعـمَـنَّ رأيًا بجرأة، ولا تحقّرن رأيًا باستخفاف»

لم يقصد وجهةً بعينها، فكل طـريق هو الطريق الصحيح لتسكّع أفكاره. ومن ثم فهو لا يغدو أن يكون فيلسوفًا بالمعنى الذي قصده الفيلسوف اليوناني سقراط والذي كان يضعه فوق كل الفلاسفة، لأنه

لم يُخلّف ميراثًا وراءه؛ لم يخلّف عقيدة، ولا منهجًا، ولا قانونًا ولا نظامًا، بل مجرد نموذج؛ نموذج الرجل الذي يبحث عن ذاته في كل شيء ويبحث عن كل شيء في ذاته. ربما ندين بالفضل لسعي مونتيني الدؤوب الذي لم يعرف الملل ولا الكلل، كما ندين لمزاجه الفضولي، ولذاكرته الضعيفة ولنوعية الكاتب الذي صار إليه.

كان مونتيني ينسى الأفكار التي يطالعها في الكتب، مثلما ينسى الأفكار التي تحفزّها تلك الكتب بداخله. ولم تكن أمامه سوى وسيلة واحدة فقط للقبض على «أحلامه» ـ وإلا لانثالتْ على ذهنه في موجة وراء موجة ـ، وكانت هذه الوسيلة هي تشبيتها على هامش الكتاب، على الصفحة الأخيرة، ثم تطوّر الأمر شيئًا فشيئًا إلى تدوينها على قصاصات ورق منفردة حيثما اتفق، على هيئة «فسيفساء متشظية» كما أسماها هو نفسه.

في البداية اتخذتْ الأفكار شكل حواشٍ وملاحظات، ثم بدأ الرجل تدريجيًا في إيجاد صِلة منطقية بينها، مدفوعًا بحدسٍ مسبق ألا يصل بها إلى خاتمة. في أغلب الأحيان كان مونتيني يكتب كتابة مستمرة من دون انقطاع، فاحتفظتْ عباراته بطابعها العفوي.

برغم ذلك ظلَّ مقتنعًا بأن هذه الخربشات ليست هي غايته الحقيقية، فكتابة الملاحظات وتدوينها ما هي إلا منتج ثانوي في نظره، مادة مترسّبة، ربما أقول مُكررًا مثلها مثل حصوات المثانة ومثل اللؤلؤة في قلب المحار. لأن المنتج الرئيس هو الحياة نفسها،

وكل ما تولَّد عنها سابقًا ليس إلا شظايا وسقط متاع: «مهنتي وفني أن أعيش»، هكذا كان يقول.

هذه الحواشي يمكنها أن تكون صورة لعملٍ فني لا أكثر من ذلك. والكاتب القابع بداخله ليس إلا ظلًا للإنسان، برغم أننا ندهش في اليوم ألف مرة من فنانين لعِظَمِ نصيبهم من فنّ الكتابة وضآلة نصيبهم من فنّ العيش.

مونتيني يكتب!

لا، إنه ليس كاتبًا، والكتابة في نظره ليست إلا بديلًا للحياة. والبحث عن كلمات جديدة لا يغدو في نظره أكثر من «طموح طفوليّ». ينبغي أن تُشبه عباراتُه الكلامَ العاديّ واللغة المُعاشة، ينبغي أن تسكن الأوراق ببساطة كبساطة خروجها من بين الشفتيْن: ريّانة، مزعجة، مقتَضَبة، لا مرهفة ولا متأنّقة، لا متحذلقة ولا مترهبِنة، بل عسكرية صارمة.

ولما كانت كلّ واحدة من هذه المقالات قد وُلدتْ من رحم مصادفة عشوائية، أو من قلب حالة مزاجية، أو من تصفّح كتاب أو محادثة أو من حكيّ طُرفة فقد تبدو للوهلة الأولى وكأنها مجرد نصوص رُصَّتْ إلى جوار بعضها رصًا، وهو الشعور الذي انتاب مونتيني إزاءها. فلم يحاول قطّ ترتيبها ولا تلخيصها. إلا أنّه اكتشف تدريجيًا أن هذه المقالات يجمعها قاسم واحد مشترك: ألا وهو نقطة المركز والسياق والاتجاه صوب غاية ما. اكتشف أنّ للمقالات

نقطة بداية تنطلق منها وتطوف لتعودَ إليها، أي تعود إلى نقطة البداية، وهي ذاته.

في البداية أحسَّ أنه يطارد فراشات أو يلاحق ظلًا على الحائط. وشيئًا فشيئًا بدأت تتضّح الصورة، أدركَ أنه يبحث عن شيء محدد، وعن غرض محدد: عن نفسه التي طالما أخذَ يتأمّلها في كل أطوارها كيما يعيش عيشة سوية، ونؤكد سويّة لنفسه فقط.

وما بدا له في البداية وكأنه حالة مزاجية مردّها الخمول، بدأ معناه يتكشّف تدريجيًا. أيًا ما كان يصفه فهو في الحقيقة إنما كان يصفُ ردّة فعل «أناه» على هذا الحدث وذاك. ومن ثمَّ للمقالات موضوع واحد، وموضوعها هو موضوع حياته، بعبارة أخرى (أناي) «moi» أو (جوهر أناي) «mon essence»[1].

كان مونتيني يمارس اكتشاف نفسه بوصفه مهمة حياته، لأن «**الروح الخالية من المُراد تضلّ طريقها**» بحسب كلماته.

حدَّد لنفسه مهمة وعيَّن لها غاية؛ أن يكون صادقًا معها، مدوّنًا تعريف الحكمة الذي وجَدَه عند «بيندار»[2]: «**الصدق مع النفس رأس كل فضيلة سامية**». وما أن اكتشف هذه الحقيقة حتى بدأ النشاط المُسلّي الذي كان فيما مضى مجرد «إزجاء للوقت»، يأخذ

---

(١) وردتْ بالفرنسية في الأصل (المترجم).

(٢) المقصود هو بندار أو بنداروس، المولود ٥٥٢ قبل الميلاد، وهو شاعر غنائي إغريقي (المترجم).

منحى جديدًا. تحوّل إلى عالم نفس يمارس علم النفس الذاتي، فيسأل نفسه: من أنا؟

قبل مونتيني لم يطرح إلا ثلاثة أفراد أو أربعة على أنفسهم مثل هذا السؤال، فأخذته الصدمة من جسامة المهمة التي وجد نفسَه أمامها. كان أول ما لاحظَ: من الصعوبة أن تعرفَ من أنتَ. حاوَلَ أن يتأمّل نفسه مِن عل ليرى ذاته مثلما يراها الغريب. أخذ يسترق السمع إلى نفسه، يدقّق النظر، يدرس، أراد أن يصير كما كتبَ لاحقًا «ميتافيزيقاه وفيزيقاه»[1] في آن واحد بحسب تعبيره. لم يترك شاردة ولا واردة إلا وأحصاها في مقالاته، زاعمًا أنَّ شيئًا لم يغب عن مرمى بصره طَوال سنوات، فيقول: **«لم تعزب عني هفوة واحدة إلا ورصدتها»**.

وهكذا لم يعد واحدًا، بل صار اثنين. اكتشفَ أن هذه التسلية لا نهائية، وأن هذه الأنا ليست ثابتة، بل في حالة صيرورة دائمة، آخذة شكل أمواج متوالية، وأن مونتيني ابن اليوم ليس هو بالضرورة مونتيني ابن الأمس، مُدركًا أنه لا يمكن للمرء سوى اللعب على وتر وصف أطوار حياته وأحوالها وتفاصيل حياته وحسب.

إلا أنّ كل تفصيلة من هذه التفاصيل تحمل أهمية قصوى، فالإيماءة الصغيرة العابرة على وجه الخصوص تعلّمنا أكثر مما يعلمنا الموقف المتصلّب. وهكذا راح مونتيني يصوّر نفسه بالتصوير

---

(١) أي أن يكون أطواره المادية والروحية (المترجم).

البطيء. فكُّك ما يبدو ظاهريًا على أنه وحدة واحدة، إلى مجموعة من الحركات والتحوّلات، وبهذه الطريقة لن ينتهي من مهمته أبدًا، وسيظلُّ دومًا في عملية بحث أبدي متواصل.

ولكن لا يكفي أن تتأمل نفسك حتى تفهمها، لأنك لن تستطيع أن ترى العالَم مادمتُ تكتفي بالنظر إلى «سُرَّتِكَ» فقط بحسب تعبيره. ولهذا السبب أقبلَ مونتيني على قراءة التاريخ ودراسة الفلسفة، لا لتثقيف نفسه أو للوصول إلى يقين معرفي، لا، بل ليرى كيف تصرَّف من سبقوه، وليضع ذاته موضع المقارنة معهم.

أخذ يدرس «أرواح الماضي الثرية» ليقارن نفسه بها، وراح يدرس فضائل الآخرين ورذائلهم وعيوبهم ومزاياهم وحِكمتهم ورعونتهم. التاريخ كتاب تعليمي لا يشقّ له غبار، لأن الإنسان يكشف عن نفسه في أفعاله، بحسب قول مونتيني.

ومن ثمَّ لم تكن الأنا أو الذات هي غاية بحث مونتيني، وإنما «الإنساني داخل الإنسان». كان يريد الوقوف على نحو دقيق على كل ما هو مشترك وفريد في كل إنسان: الشخصية، الجوهر، المزيج الذي لا سبيل أن يشترك بوجه من الأوجه مع الآخرين، الجوهر الذي انتهى تشكّله ببلوغ المرء العشرين، وذلك جنبًا إلى جنب مع الإنسان العادي المتشابه في كل أحواله مع جميع البشر، راح يدرس ذلك الكيان الواهن المحدود المحكوم بالسُنن الكونية الكبرى، ذلك الكيان العالِق في الفترة من الميلاد إلى الممات.

ومن ثمَّ سَلَك مونتيني طريقيْن متوازيين: كان يبحث عن الأنا، أي تلك الذات المتفرّدة، وتحديدًا ذات مونتيني، التي لم يكن يشعر أنها ذاتٌ استثنائية بشكل خاص، أو حتى تتمتع بأهمية كبرى ولكنها مع ذلك ما تزال نسيجًا وحدها. وهي الذات التي يرغب في ألا يفرّط فيها لصالح العالم. وأما الطريق الآخر الذي سار فيه فكان طريق البحث عن الأنا داخل الـ «نحن»، بمعنى آخر: الأنا التي لا تفقد سِمَتها الأصيلة في أثناء وجودها وسط الآخرين، وتُحدِّد كيف تنسجم مع الآخر، مع ما هو مشترك بيننا جميعًا. ومثلما كان جوته يبحث عن النبات الأول أو «أمّ النبات»[1]، كان مونتيني يبحث عن الإنسان الأول، الإنسان الكامل، الذي لم يطرأ عليه تغيّر ولا تبدّل، ولم تشوّه روحه التحيّزات والمزايا ولا العادات والقوانين.

ومن ثمّ ليس من قبيل الصدفة أن يبدي الرجل انبهاره الشديد بأبناء البرازيل الذين قابلهم في مدينة «روان» الفرنسية، ولم يكونوا يؤمنون بإله، أو بزعيم، أو بديانة أو عادات. حيث رأى فيهم، إن جاز لنا التعبير، الإنسان الطاهر الذي لم يطله تشوّه ولم يلوثّه فساد،

---

(١) مصطلح ابتكره الشاعر الألماني الأشهر يوهان فولفجانج فون جوته. كان جوته مشهورًا بحبّه لدراسة علم النبات - من بين أنشطة علمية أخرى عديدة- وذهب إلى أن النباتات كلها، مثلًا، شُكلت على غرار نموذج أساسي أصيل- حتى وإن كان متخيلًا- أو نبات أول، هو أم النبات جميعًا. وكتب إلى أستاذه، الكاتب والشاعر والفيلسوف الألماني «هيردير» يقول «إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حي» أي على الحيوانات كما يطبق على النباتات، فالحيوانات هي أيضًا تحورات من أصل بنائي واحد. وكما أن الكائن الحي الفرد، بكل تفرده، هو محاكاة لنمط أول، كذلك قد تكون أجزاء الكائن تحورات لشكل أساسي واحد (المترجم).

الصفحة النقية البيضاء في يدّ، وفي اليد الأخرى الكتابة التي تُنقش فوقها ويخلّد بها كل إنسان نفسه. وربما كانت أبيات قصيدة جوته الكلمات الأولى صدى لرؤية مونتيني:

وفي اليوم الذي مُنحتَ فيع نعمة الوجود في هذا العالَم

وقفَتْ الشمس تحيةً للكواكب

وانطلقتْ روحكَ على الفور لتنمو وتزدهر بلا توقف

اعلم أنه بحسب القانون الذي يحكم وجودكَ

ليس في مقدوركَ إلا أن تكون نفسك

ولا في مقدورك الهروب من ذاتك

هذا ما قالته العرّافات عبر العصور وأخبر به الأنبياء على مرّ الدهور

ليس في مقدور الزمن ولا أية قوى

أن تمزّق صورة حياتك الآخذة في النموّ يومًا وراء يوم

وُصِفتْ مسألة البحث عن الذات التي مثّلتْ بالنسبة إلى مونتيني الألف والياء، والبداية والنهاية، بأنها «أنانية مونتيني المفرطة». كان «باسكال»[1] على وجه الخصوص قد وصف هذا التوجّه بأنه لون من ألوان الغرور والنرجسية، بل وعدَّه خطيئة، ووصَفَه بنقيصة مونتيني الكبرى.

---

(١) بليز باسكال (١٦٢٣-١٦٦٢): فيلسوف وعالم رياضيات فرنسي مشهور، كان من كبار المدافعين عن العقيدة المسيحية وشنَّ هجومًا ضاريًا على مونتيني، يمكن للقارئ الرجوع إلى أوجه الخلاف في كتاب «كيف تُعاش الحياة أو حياة مونتاني» لسارة بيكويل، التنوير ٢٠١٩ (المترجم).

إلا أن موقف مونتيني لم يسع إلى الانعزال عن الآخرين، ولم يتبنَّ مذهب كشف الفضائح مثلما فعل جان جاك روسو. فلم يكن هناك شيء أبغض إليه من انتفاخ الذات ولا من الإسراف في تعظيمها. لم يكن الرجل منعزلًا ولا ناسكًا ولا راغبًا في إظهار نفسه أو التباهي بها، وكان كل فعل يُقدِم عليه إنما يفعله ابتغاء فهم نفسه. وإذ كان يقول إنه يحلّل نفسه بلا توقف، فإنه كان يؤكد في الوقت ذاته على لومها ومحاسبتها بلا توقّف أيضًا. كان يتصرّف وفق إرادته وطباعه، وكان إذا اقترف خطأً أسرع إلى الاعتذار عنه عن طيب خاطر. ولو صَحَّ أن فرط الاهتمام بالذات عند مونتيني ينطوي على رائحة غرور، فهذه خِصلة لا سبيل إلى إنكارها، لأنها صفة متجذّرة في طبعه، حتى لو كانت «خصلة مَرَضية»، بحسب كلامه: **«وهذا عيب لا يحقُّ لي إخفاؤه، لأنه ليست بِدعة، بل مهنة»**.

كان الانغماس في دراسة ذاته يمثّل إليه وظيفة، مَلَكَة، متعة حقيقة، تتجاوز مسألة الغرور بكثير. ولم يجعله الالتفات إلى ذاته غريبًا عن العالَم قط، لم يكن الرجل مثل ديوجين العائش في جرَّته[1]، ولا روسو الذي دفن نفسه في غياهب جنون الاضطهاد.

فلم يكن في حياته ما يدفعه للشعور بالمرارة أو ما يحضّه على الفرار بعيدًا عن العالَم الذي أحبه، إذ يقول: **«أحبُّ الحياة وأعيشها مثلما شاء الله أن يهبنا إياها»**.

---

(١) كان ديوجين المعاصرلأفلاطون وأرسطو وتلميذ سقراط فيلسوفًا متشردًا، وأحدَ رُواد المدرسة الكلبية Cynicism يعيش داخل برميل ويتجوّل في أثينا في وضح النهار حاملًا فانوسًا مضاءً، باحثًا عن رجل حقيقي على حد قوله (المترجم).

والحقيقة أن التفاتَ مونتيني البالغ إلى تأمّل ذاته لم يجعله رجلًا وحيدًا بلا أصدقاء، بل على العكس، أغدقَ عليه بآلاف الأصدقاء. لأن مَنْ يرسم صورة حياته إنما يعيش للناس كافة، ومن يُعبِّر عن صورة عصره فإنما يُعبِّر عن صورة العصور كافة.

وهذا صحيح، لأن مونتيني لم يفعل شيئًا طوال حياته سوى أن يسأل: كيف أعيش؟ لكن روعة وجمال مونتيني مردّها إلى أنه لم يحاول قط قَلْبَ صيغة السؤال إلى صيغة أمر، بمعنى أنه لم يحوّل سؤال: «كيف أعيش؟» إلى «هكذا ينبغي لك أن تعيش!»

فالرجل الذي نقشَ على ميداليته عبارة[1]: ما الذي أعرفه؟ «Que sais-je»، لم يبغض في حياته شيئًا أشدَّ من الأحكام المتحجّرة. كما أنه لم يحاول أن يسدي إلى الآخرين نصيحة لم يجرّبها على نفسه، إذ يقول:»ليست هذه تعاليمي، وإنما جهودي لأن أتعلّم، وليست هذه حكمة أهديها إلى الآخرين، بل هي حكمتي أنا. ولو أراد أحدٌ الاستفادة منها فلا ضير في ذلك، ولو رأى أحد أن ما أقوله حماقة، فضرر الحماقة ووزرها واقع عليّ وحدي. لو كنتُ أحمق فسأتحمّلُ عواقب حماقتي، ولن يُضار أحدٌ من مَغبَّة كلامي، فهذي حماقتي أنا، ومثواها نفسي أنا، ولن تُسفر عن أية عواقب».

---

(١) في الترجمة العربية للجزء الثاني، ص ١٦٦ من مقالات مونتيني على يد القدير فريد الزاهي نقرأ أن الشرّاح كتبوا كثيراً أن مونتيني قد نقش في سنة ١٥٧٦ لنفسه ميدالية فيها ميزان بكفّتين متوازنتين يرمز بها إلى الاستحالة التي عرفها حينذاك في تبني هذا الرأي أو الآخر، لكن هذا الارتياب عرف تغيرات قوية (المترجم)

ما كان يفتّش عنه يخصّه وحدَه. أما ما عثر عليه فمسموح لأيّ شخص أن يأخذ منه حسبما يريد أن يأخذ، وبحسب قدرته.

جوهر الحرية الحقيقي هو أنها لا تستطيع أبدًا تقييد حرية الآخرين.

(٧)

الدفاع عن القلعة

قلّبتُ في أعمال مونتيني كلها فلم أعثر فيها إلا على قاعدة واحدة لا تتغيّر وادّعاءً واحدًا لا يتزعزع: «**ما عرفتُ شيئًا في الدنيا أعظم من معرفة النفس**».

فليس المنصب في الدنيا، ولا نبالة العِرْق ولا المواهب هي ما تصنع شرف الإنسان، لكن ما يصنع شرفه الحقيقي هو إلى أيّ حدّ ينجح المرء في صون استقلالية شخصيته وعيش حياته الخاصة حسبما يريد. لذلك وضع مونتيني فنّ حفظ الذات في أعلى مرتبة من مراتب الفنون قاطبة، إذ يقول: «**من بين كل الفنون الحرّة دعونا نبدأ بالفنّ الذي يحرّرنا**».

لكنّ أحدًا لم يتقن ممارسة هذا الفنّ بشكل أفضل من مونتيني. ربما يبدو هذا طموحًا فقيرًا بعض الشيء، حيث يبدو للوهلة الأولى ألا شيء في الحياة أكثر بديهية من نزوع المرء إلى البقاء على سجيّته والعيش وفق فطرته. ولكننا لو تدبّرنا حقيقة الأمر ألا نجد أن هذا المطلب هو الأصعب على الإطلاق؟

أن يكون الإنسان حرًا معناه ألا يكون مثقلًا بالالتزامات ولا مقيّدًا بالواجبات. ونحن جميعنا مقيّدون بتقاليد المجتمع والأسرة، كما أن أفكارنا مرهونة باللغة التي نتحدّثها، والإنسان المنعزل، المتمتع بحرّية كاملة الأركان، ليس إلا وهمًا صريحًا.

فمن رابع المستحيلات أن نعيش في جزر معزولة، لأننا جميعًا، عن وعي أو لا وعي، نرزح -بحكم التربية- تحت نير العادات والتقاليد والآراء السائدة، إننا نتنفّس روح العصر الذي نحياه. ومن المستحيل أن نضرب عرض الحائط بكل هذا الإرث. وكان مونتيني على معرفة تامة بذلك؛ حيث كان طَوال حياته مثال الرجل الملتزم بواجباته إزاء الدولة والأسرة والمجتمع، والمواظب -ظاهريًا على الأقل- على أداء الطقوس الدينية، والمحافظ على آداب السلوك الاجتماعي.

كان مراد مونتيني هو معرفة حدود الاشياء. كان يرى أنه لا يجوز لنا أن نَهَبَ أنفسنا للآخرين تمامًا، لا يسعنا إلا أن نقرضَ الآخرين شيئًا من أنفسنا وحسب.

وفق مونتيني:

«يتحتّم علينا صون حرية أرواحنا وعدم إقراض حريّتنا لأحد، اللهم إلا في ظروف نادرة لا نرى فيها غضاضة أن نفعل ذلك».

لسنا في حاجة إلى الانسلاخ عن العالَم أو الانزواء للعيش خلف

جدران زنزانة، ولكننا في حاجة إلى أن نميّز تمييزًا دقيقًا بين شيئين: بين أن نحبّ هذا أو ذلك، وبين أن نرتبط بهذا الشيء أو ذاك برابطة الزواج الكاثوليكي.

لا ينفي مونتيني البتة ما يعتمل في نفوسنا من أهواء ورغبات، بل على العكس ينصحنا الرجل دومًا بأن نستمتع بحياتنا قدر الإمكان، فهو إنسان عاشق للدنيا، ولا يعرف للمتع حدودًا؛ فمَن يهوى السياسة فليحترفها، ومن يهوى القراءة فليقرأ، ومن يهوى القنص فليخرج إلى الصيد، ومن يحبّ منزله وأرضه وأمواله وأملاكه فليكرّس حياته لها. وهذا هو بيت القصيد عنده: أن تأخذ من الأشياء بقدر ما تمنحكَ الأشياء متعة وسرورًا، وحاذر من أن تترك نفسك تحت رحمة الأشياء لتأخذكَ بعيدًا.

وفق كلامه: **«سواء في المنزل أو في المدرسة، وسواء في الصيد أو في أيّ نشاط آخر، عليكَ أن تذهب مع المتعة إلى حدودها القصوى، ولكن خذْ حِذرك من ألا تتخطّى هذه الحدود، وإلا شقيتَ»**.

على الإنسان ألا يسمح بأن يدفعه ثِقل الشعور بالواجب، أو العاطفة المسرفة أو الطموح المفرط إلى الذهاب إلى أبعد مما يريده حقًا أو ما أراده بالفعل. بعبارة أخرى على الإنسان أن يزِنَ قيمة الأشياء الحقيقية باستمرار، وألا يبالغ في تقديرها، على المرء أن يقف عند النقطة التي تتوقّف عندها راحته، وأن يبقي رأسه يقظًا متنبهًا، وألا يُلزم نفسه بشيء يخالف طبيعته، وألا يمسي عبدًا، وأن يبقى حرًا.

بيد أن مونتيني لا يُملي علينا هنا أية قواعد، وإنما يكتفي بأن يضرب مثلًا كيف حاوَلَ تحرير نفسه من كل ما يثبّط عزمه، ويزعجه، ويكبّل يديه. يمكنك محاولة إعداد جدول كالتالي:

ـ التحرر من الغرور والزهو، وربما تكون هذه أصعب المهام قاطبة.

ـ ألا يأخذه الكِبْر.

ـ التحرّر من الخوف والأمل والاعتقاد والخرافات. التحرّر من القناعات الراسخة والتحزّبات.

ـ التحرّر من أسر العادات؛ بحسب قوله: «**العادة تُخفي عنا الوجه الحقيقي للأشياء**».

ـ التخلّي عن الطموح وكل ألوان الشَرَه؛ بحسب قوله: «**التعطّش للشهرة والمجد هو أقلّ العملات المتداولة نفعًا، وأبخسها قيمة وأشدّها زيفًا**».

ـ التحرّر من قيود الأسرة والمحيط الاجتماعي. التحرّر من التعصّب: «**لأن كلّ بلدٍ يظن أنّ لديه الدين الأكمل**». التحرّر من الرغبة في أن يكون المرء في صدارة المشهد دومًا.

ـ التحرّر من سطوة القَدَر. نحن أسياد القَدَر. نحن من نضفي إلى الأشياء لونًا ونمنحها وجهًا.

وأما الحرية الأخيرة فحرية الموت. الحياة مرهونة بإرادة الآخرين، أما الموت فمرهون بإرادتنا. فأجمل موت هو أن تموت بإرادتكَ[1].

أما باسكال فرسَمَ مونتيني في صورة الرجل المنفصل عن كل قيمة، المستقلّ عن كل شيء، الرجل الذي يحيا في الفراغ ويشكّك في كل شيء. والحقيقة أنه لا أفسد ولا أضلّ مِنْ هذه الصورة التي رسمها باسكال. ذلك أن مونتيني كان يحبُّ الحياة حبًا جمًا، ولم يكن يخاف شيئًا مثلما يخاف الموت. كان يحبّ الحياة بحلوها ومرّها، إذ يقول:

«لا شيء في الطبيعة عديم القيمة، ولا شيء عديم الجدوى، ولا شيء في الكون ليس في مكانه المناسب».

كان مونتيني يحبُّ القبيح لأنه يكشف عن الجميل، ويحبُّ الرذيلة لأنها تكشف عن الفضيلة، كان يحبُّ الجريمة والحماقة. كل شيء حسن والله يبارك التنوّع في العالَم.

وما يخبرك به أبسط الأشخاص لا يخلو من قيمة وأهمية، وفي مقدروكَ أن تتعلّم من أجهل الجُهّال أكثر مما تتعلّم من أكابر العلماء. كان يحبّ الروح التي تسكن «عدّة طوابق مختلفة»، الروح التي

---

(١) وردت بالفرنسية في الأصل: La plus volontaire mort est la plus belle.(المترجم).

تشعر بالراحة أينما وضعها القَدَر[1]، كان يحبُّ الرجل الذي في مقدوره التحدّث مع جاره عن منزله ورحلات صيده ونزاعاته القانونية، كما يحبُّ الاستمتاع بالدردشة مع نجّار أو بستاني.

ثمة شيء واحد فقط باطل ومؤثّم: أن نحصر العالَم المتنوع في إطار مصفوفة من العقائد والأنظمة. لأنه من الباطل أن نكفّ أيدي البشر عن الحُكم على الأشياء، وأن نصرفهم عن إرادتهم الحرّة، كما هو باطل أن نفرضَ عليهم أشياء مخالفة لطباعهم.

ازدراء الآخرين هو ما يقف حجر عثرة في طريق الحرية، ولم يكن مونتيني يبغض شيئًا مثلما أبغضَ جنون المثقفين الطُغاة، أولئك الذين يريدون بكل وقاحة وغرور فرض «آرائهم السديدة الثاقبة» على الآخرين باعتبارها الحقيقة الوحيدة المطلقة غير القابلة للجدال، ولا يعبأون بإراقة دماء مئات الألوف من الأشخاص في سبيل بلوغ أهدافهم. كان هذا إذن هو موقف مونتيني من الحياة الذي انتهى به، شأنه شأن كل مفكّر حر، إلى اعتناق مبدأ التسامح.

فمن يطالب بحرية الفكّر لنفسه لن يبخل بها على غيره، ولم يُقَدِّر أحدٌ حرية التفكير مثلما قدَّرها مونتيني.

---

(١) ربما يلاحظ القارئ هنا التناقض في أفكار مونتيني، حيث يختلف كلامه هنا عن كلامه السابق بأن البشر هم أسياد القَدَر كما ذكر آنفًا، وهي سمة مميزة لمقالات مونتيني، أي التناقض والتقلّب من حال إلى حال، ومن فكرة إلى فكرة نقيضة، ربما تعبيرًا عن حالة الصيرورة الدائمة التي كانت تعيش فيها نفسه، وهو ما لاحظته ابنته بالتبني التي كتبت مقدمة المقالات كما سنرى في نهاية الكتاب (المترجم).

لم يكن مونتيني يخجل من آكلي لحوم البشر، أولئك البرازيليين الذين التقاهم في مدينة «روان» لأنهم كانوا يأكلون جثث البشر. كان يقول بوضوح وهدوء إنه يجد هذا السلوك أقلَّ وحشية من تعذيب الأحياء، والتمثيل بهم ودفعهم للاستشهاد. ورأيه هذا لم يكن اعتقادًا مسبقًا، ولا حُكمًا يشوبه التحيّز.

يقول: «**أنا لا أتورّط في فخّ إصدار حُكم على شخصٍ آخر وفق تصوّري الشخصي**».

كان مونتيني يُحذِّر من مغبة العنف ومن القوة الغاشمة التي، مثلها مثل أي شيء آخر، في مقدورها أن تفسد الروح وتشوّهها. من الأهمية بمكان أن نضع نصب أعيننا الحقيقة السابقة باعتبارها برهانًا دامغًا على قدرة الإنسان على أن يكون حرًا على الدوام، وفي الأوقات كلها.

فعندما دعا «كالفن»[1] إلى محاكمة الساحرات، وتَركَ خصومه يلقون حتفهم حرقًا على نيران هادئة، وعندما أرسل «توركيمادا»[2] آلاف الأبرياء إلى المحارق، اعتذر أنصار الرجليْن،

---

(١) جان كالفن: قسيس ولاهوتي ومصلح ديني فرنسي خلال حركة الإصلاح البروتيستانتي، كان من المساهمين الرئيسيين في تطوير المنظومة اللاهوتية المسيحية التي دُعيت فيما بعد بالكالفينية (المترجم).

(٢) توماس دي ترويكمادا: كاردينال دومنيكاني، وأول محقّق عام في محاكم التفتيش الكنسيّة في إسبانيا بعد سقوط الأندلس، يعرف بأنه راهب الأثرياء وكبير المحققين في محاكم التفتيش، أصبح اسمه أيقونة الرعب ومرادفًا لكل صور التعصّب والإرهاب والتنكيل بسبب الآلاف الذين أمر بحرقهم من المسلمين واليهود في إسبانيا (المترجم).

متذرّعين بحجة أنهما «أي كالفين وتوركيمادا» لم يكن في مقدورهما فعل شيء آخر، وأنه كان من المستحيل التحرّر من الآراء المهيمنة آنذاك.

إلا أن ما هو إنساني خالد لا يطرأ عليه تبدّل أو انحلال. فحتى في أحلك حِقب التعصّب، حقبة «مطرقة الساحرات»[1] و«محاكمات الهراطقة» و«محاكم التفتيش» استطاع أنصار المذهب الإنساني العيش، وفي غمرة كل هذه الأهوال لم يفقدوا للحظة واحدة وضوح وإنسانية أفكار إيراسموس ومونتيني وكاستيللو.

وبينما أعلن أساتذة السوربون والمستشارون والمندوبون الأجانب وأنصار الإصلاح «الزونكلي»[2] والإصلاح الكالفيني بوضوح عن قاعدة: «نحن مُلّاك الحقيقة»، كان ردّ مونتيني عليهم: «**ما الذي أعرفه؟**»، وبينما أراد هؤلاء فرض مبدأ: «**عليكَ أن تعيش وفق كذا**»، كانت نصيحة مونتيني: «**ابتكروا أفكاركم الخاصة، لا تعيشوا أفكاري، بل عيشوا أفكاركم، ولا تتبعوا خطواتي اتباعًا أعمى، بل اتبعوا خطواتكم وابقوا أحرارًا**».

من يفكر بحرية لنفسه، إنما يوقّر كل حرية على وجه الأرض

(١) Malleus Maleficarum: كتاب يتناول موضوع محاكمات الساحرات التي كانت تجري في القرون الوسطى (المترجم).

(٢) هولدريخ زوينكلي: كان زعيماً للإصلاح في سويسرا. وُلد في زمن بزوغ الحس الوطني السويسري وتصاعد انتقاد نظام المرتزقة السويسريين، التحق بجامعة فيينا وجامعة بازل، التي كانت مركزًا دراسيًا للنزعة الإنسانية. وقد واصل دراساته بينما كان يعمل قسًا في گلاروس ولاحقًا في أينسيدلن حيث تأثر بكتابات إيراسموس (المترجم).

(٨)

عندما تقاعد «ميشيل دي مونتيني» في سنة ١٥٧٠ وهو في الثامنة والثلاثين معتزلًا داخل برجه، كان قد اعتقد أن حياته قد وصلت إلى المحطة الأخيرة. ومثله كمثل شكسبير في طور النضج، فَطِنَ الرجلُ ببصيرة ثاقبة إلى هشاشة الأشياء، وإلى غرور المناصب الرسمية، وإلى جنون أروقة السياسة، وإلى مهانة الخدمة في المحاكم، والضجر من الخدمة في المجالس المحلية، وفي المقام الأول أدركَ عدم جدوى وجوده في هذا العالَم.

حاول الرجل تقديم المساعدة، لكنهم صدّوا عن سبيله، وبذل قصارى جهده، لا بإلحاح، ولكن بفخر رجلٍ يعرف قدر نفسه، في أن ينصح أصحاب السلطة، وأن يليّن قلوبَ المتعصّبين، لكنهم أعرضوا عنه. كانت الأمور تزداد اضطرابًا سنة تلو الأخرى، حتى اقتربتْ البلاد من حافّة الانفجار، سيّما بعد أنهار الدماء التي أُهرِقَت في أعقاب مذبحة سان بارتيليمي[1].

---

(١) مذبحة سان بارتيليمي: حدثت في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ وذُبِحت خلالها أعداد تقدر ما بين خمسة آلاف إلى ثلاثين ألف بروتستانتي فرنسي على يد السلطات الكاثوليكية والمتعصبين الكاثوليك، وكان الهدف منها القضاء على البروتستانت تمامًا بأوامر من الملك

دارت رحى الحرب الأهلية وامتدّت ألسنتها لتصل إلى عقر داره، بل إلى باب حجرته، لذلك استقرّ عزمه ألا يتدخّل فيما يجري حوله، وألا يسمح له بأن يمسّ مشاعره. فقَد الرغبة في رؤية العالَم، ورغب في الاعتكاف داخل غرفة مكتبه ليتأمّل حياته، كما لو كان داخل غرفة تحميض الصور. اعتزل وانعزل. وبينما انصرف الآخرون إلى بلوغ المنصب والنفوذ والشهرة، انصرف مونتيني إلى ذاته، محتميًا بجدران برجه، ومتحصنًا بأرفف مكتبته المثقلة بآلاف الكتب ضد ضجيج العالم الخارجي.

من حين إلى آخر كان يقوم بنزهات خارج جدران البرج، فتراه يحضر مراسم جنازة الملك تشارلز التاسع بصفته حامل وسام الفارس للقديس ميخائيل، وكان أحيانًا ينهض بدور الوسيط السياسي بين الأطراف حال طُلِبَ منه ذلك، من دون أن يتغيّر عزمه على عدم المشاركة بروحه بغية تجاوز الفترة الراهنة، بل أن يشاهد من بعيد المعارك بين دوق «كوليجني» وطائفة «جويز»[1]. وضع مسافة بينه

شارل التاسع ووالدته كاثرين دى ميديشى خوفًا من انتشار البروتستانتية، ولقيت ترحيبًا واسعًا من بابا الكنيسة الكاثوليكية جريجورى الثالث عشر (المترجم).

(١) أصل الحكاية أن عددًا كبيرًا من نبلاء الطائفة البروتيستانتية سافروا إلى باريس لحضور حفل زفاف هنري، ملك مملكة نافارا ومارجريت دي فالوا (Marguerite de Valois) شقيقة الملك مما أدى إلى تصاعُد التوتر السياسي والديني. أطلق رجلٌ يُدعى موريفير الرصاص على "كوليجني" (هو نبيل فرنسي ولواء بحري) من أحد بيوت طائفة "جويز" (Guise) في الشارع في ٢٢ أغسطس عام ١٥٧٢ وهو اليوم التالي لحفل الزفاف، إلا أن الرصاص تسبب فقط في قطع إحدى أصابع يده اليمنى وكسر مرفقه الأيسر وهرب الرجل الذي كان يرغب في قتله، انتاب الكاثوليك حالة من القلق من انتقام الهوغنوتيين منهم لمحاولة اغتيال "كوليجني"، ومن ثمّ قرروا اغتياله دفاعًا عن

وبين رؤية الآخرين، واعتزم ألا يقاسي آلامهم، أن يقف على الحياد، أن تكون ذاته هي عالمه الوحيد. كان يريد تسجيل بعض الذكريات، ولملمة شتات بعض الأفكار، أراد أن يحلُم أكثر مما يعيش، أن ينتظر الموت بصبر، وأن يعدّ العدة لمجيئه.

كان يقول لنفسه ما نقوله جميعًا لأنفسنا في أوقات الجنون: لا تكترث بما يجري حولك في العالم. ليس في مقدورك تغييره ولا إصلاحه. اعتنِ بأمر بنفسك، والتفتْ إلى إنقاذ ما يمكنك إنقاذه. ابْنِ شيئًا بينما يدمِّر الآخرون، حاول الاحتفاظ بسلامة عقلك وسط جنون العالم. اعتزل الناس، وشيِّدْ عالمكَ الخاص.

ولكننا اليوم في سنة ١٥٨٠.

ها قد لزم الرجل برجه لمدة عشر سنوات، منعزلًا عن العالم، حتى طاف بخلده أن ساعة النهاية قد حانت. في هذه اللحظة انتبه إلى خطئه، أو بالأحرى إلى أخطائه، ومونتيني هو الرجل الذي لا يستحيي أن يعترف دائمًا بأخطائه. كان الخطأ الأول هو اعتقاده أن بلوغ الثامنة والثلاثين يعني ضرورة الاستعداد المبكّر للموت والدخول إلى تابوت الدفن وهو ما يزال على قيد الحياة. أما الآن وقد شارف على الثامنة والأربعين، اعترته دهشة عارمة لأن حواسَه لم يُصِبها الوَهن، بل ازدادتْ توهجًا، وصار تفكيره أشدّ وضوحًا،

أنفسهم خلال ما أصبح يُعرف باسم مذبحة سان بارتيليمي المشار إليها آنفًا (المترجم).

وأمستْ روحه أكثر هدوءًا، وأشدّ فضولًا وتحمّسًا. لا يملك المرء قرار إغلاق الكتاب مبكرًا إلا لو كان قد وصل إلى الصفحة الأخيرة.

وما أجمل قراءة الكتب؛ تعيش في بلاد الإغريق ساعة في صحبة أفلاطون، وتنصت ساعة أخرى إلى حكمة سينيكا، هكذا وجد مونتيني الراحة والسكينة في العيش بين هؤلاء الرفاق القادمين من قرون غابرة، مع أفضل البشر في الدنيا. وحتى لو لم يكن يرغب في ذلك، إلا أنه ما يزال يعيش في عصره، وما يزال هواء عصره ينفذ إلى أشد الغرف تحصينًا، لا سيّما عندما يكون ذلك الهواء هائجًا، ساخنًا، محمومًا وعاصفًا.

جميعنا مرَّ بهذه التجربة، حتى في أشدّ أوقات العزلة؛ لا تقوى الروح على الاحتفاظ بهدوئها لو كانت البلاد في حالة قلاقل واضطرابات، حيث تشعر الروحُ بذبذبات الوقت تتسلّل عبر البرج والنوافذ، صحيح أنه في مقدورنا أن نأخذ قسطًا من الراحة، لكن ليس في مقدورنا الهروب من ضجيج الزمن تمامًا.

وشيئًا فشيئًا بدأ مونتيني ينتبه إلى خطأ آخر؛ وهو أنه كان يبحث عن حريّته عبر الانسلاخ من العالم الكبير، أي من عالم السياسة والمنصب العام والأعمال، واللوذ بالعالم الصغير، أي عالم المنزل والعائلة والتزاماته الأسرية، لكنه سرعان ما أدركَ أنه لم يفعل سوى استبدال عبودية بأخرى. حيث لم يُفلح غرس جذوره في أعماق

مملكته الخاصة في إنقاذه، فهناك اللبلاب والعشب الضار الذي يلتفُّ حول الجذع، فضلًا عن جرذان الهموم التي تقضم الجذور.

لم ينفعه يومئذٍ البرج الذي شيَّده لنفسه وحَظَرَ على الآخرين دخوله. كان عندما يطلّ من النافذة ويرى الصقيع يعتلي الحقول، ينصرف ذهنه فورًا للتفكير في فساد محصول الكروم، وعندما كان يفتح كتابًا يتناهى إلى سمعه ضجيج المشاحنات بالأسفل، فيدرك أنه لو غادر غرفته فلن يسمع إلا شكاوى الجيران ومشكلات الإدارة.

وليست هذه عزلة ناسك، لأن مونتيني صاحب أملاك وأراض، والأملاك والأراضي لائقة بالرجل الذي يجد سعادته فيها. أما مونتيني فليس من طينة هؤلاء الرجال، إذ يقول: «**جَفْعُ الثروة مهمة شاقّة لا أرى نفسي أهلًا لها**».

بيد أن الثروة معلّقة في رقبته ولا تسمح له بالانشغال عنها. غير أن مونتيني كان يغضّ الطرف عن حقيقة وضعه، لأنه كان على معرفة تامة بأنه لو نظر إلى الأمور من منظور أرحب سيرى كل هذه المنغصات مجرّد هموم بسيطة. لعلّه ودَّ لو ضرب بالأمر كله عُرض الحائط قائلًا: «ربما يكون من الأسهل التخلّي عن كل شيء». لكنكَ مادمتَ منشغلًا بشيء فلن تستطيع التخلص منه.

لم يكن مونتيني مثل «ديوجين»، لأن الأول، كان يحبّ بيته وثروته ويعشق لقب النبالة، وكان يعترف دومًا بأنه كان يحمل

صندوقًا صغيرًا ذهبيًا ليشيع في نفسه السكينة الداخلية. كان يستمتع بمنصبه الرفيع كنبيل عظيم إذ يقول:

«أعترف أنه من دواعي سروري أن أحكم، حتى لو كنتُ أحكم حظيرة، وأن أكون سيدًا مُطاعًا في مملكتي، إلا أنها متعة مملة تناوبت على إفسادها سلسلة من المضايقات».

يقرأ المرء منا أفلاطون ويضطرّ في الوقت ذاته إلى الشجار مع الخَدَم ومقاضاة الجيران وحَملِ همِّ كل صيانة تافهة الشأن. صحيح أنّ الحكمة ستُملي عليه ألا يحمل همَّ سفاسف الأمور، إلا أن جميعنا قد مرَّ بهذه التجربة، مادمتَ تمتلك شيئًا، سترتبط بما تملك، أو سيمسكُ بخناقك ما تملكه بألف خُطّاف صغير، ولن ينقذكَ سوى شيء واحد، أن تبقى على مسافة منه. وحدها المسافة الخارجية هي ما تخلق مسافة داخلية. يقول مونتيني: **«بمجرد ابتعادي عن قصري، تتبدّد عني كل هذه الأفكار، ولو سقط برجٌ من أبراج القصر، فلن أعيره اهتمامًا أكثر من اهتمامي بسقوط لوح خشبي من السقف».**

كلما ضاق المكان، ضاق منظورك في قياس الأشياء. كل شيء نسبي؛ لا يملُّ مونتيني من تكرار الحقيقة التالية:

«منغصّات الحياة أشياء لا وزن لها؛ فنحن من نضخّمها ونحن من نُحقّرها. ما هو قريب منا أشدّ إرهاقًا مما هو بعيد، وكلما تضاءل حجم علاقاتنا زادت تفاهة الأشياء التي تزعجنا. لا يمكنك الهروب من منغصّات الحياة تمامًا، ولكن في مقدورك أن تأخذ عطلة منها».

أيقظَتْ هذه المنغصات الحياتية في نفس مونتيني، ذي الثمانية وأربعين ربيعًا وبعد فترة طويلة من العزلة، شعور التوق إلى التجوال بلا وجهة. وقد أفصح الرجل بصراحته الإنسانية المعهودة عن أسباب عودته إلى العالم، وعن أسباب رغبته في كسر قيود العادات والروتين وإفلات أصابعه من القبض على دائرة الأمان، فعبَّر، كعادته دائمًا، عن شعور كل واحدٍ منا.

لطالما كان مونتيني يبحث عن الحرية والحياة المتجدّدة في كل مكان، لكنه كان يواجه دومًا القيود العائلية ورتابة الحياة الزوجية، إلى حد أننا نشعر أن الرجل لم يكن سعيدًا في حياته العائلية تمامًا. وَفق كلماته: «**صحيح أنّ للزواج فوائده، وروابطه الشرعية، وشرفه وتمتّعه بالديمومة، لكنّ جميعها متعٌ مملة رتيبة**». في حين أن مونتيني هو الرجل المُحبُّ للتغيير، الكارِه للمُتع المملة الرتيبة.

طالما كرَّر مونتيني في صيغ متباينة أنّه لم يتزوّج بقلبه، بل بعقله، بل إنّه استنكرَ الزيجات القائمة على حبّ، مؤثرًا عليها الزيجات المبنية على اختيار العقل، معتبرًا إياها الزيجات الوحيدة الصحيحة، مؤكدًا أنه تزوّج جريًا على العادة المعمول بها في زمنه، ليس إلا. على مدار قرون عديدة ظلّ مونتيني موضع إدانة بسبب مناصرته غير المهادنة لحقّ المرأة في اتخاذ عشيق، بل أن بعض مؤرخي السير الذاتية شكّكوا في ثبوت أبوّته لآخر أطفاله.

ربما تكون هذه مجرد أطروحات نظرية. ولكن بعد حياة زوجية

دامت عدة سنوات، يبدو الأمر لافتًا حين يقول:»في عصرنا هذا تنزع النساء إلى كبتْ مشاعرهنَّ ونواياهنَّ تجاه أزواجهنَّ حتى موت الزوج ودفنه. إن حياتنا طافحة بالمشاحنات، وموتنا محفوف بالحبّ والاهتمام!». بل إنه يضيف بعض الكلمات القاتلة إذ يقول:» قِلّة من النساء من تتدهّور صحتهنّ وهنّ أرامل، وصحة الإنسان لا تكذب أبدًا».

وها هو ذا بعد تجاربه الطويلة مع «زنتيب»[1] لم يستطع سقراط الحديث عن الزواج إلا بنبرة لاذعة لمّا قال: «**لا تخدعنّكَ تينيك العينين المبلّلتين بالدموع**».

ويُعتقد أن سقراط قد أخبر زوجته في لحظة الوداع قبل إعدامه: «**لا ينبغي للزوجة أن تتعلّق بوجه زوجها حتى لا يشقّ عليها أن تراه يدير لها ظَهرَه، إذا اضطرّ لفعل ذلك**».

عندما كان مونتيني يكتب عن مصادفات الزواج السعيد، يضيف إلى كلامه تحفظًا يقول: «**لو كان لهذا الزواج السعيد وجود**».

وهكذا نرى أنّ عشرة أعوام من العزلة كانت مفيدة، لكنها كانت كافية وزيادة؛ وها هو مونتيني الآن يشعر بأنه صار متحجّرًا، ضئيل القيمة، ضيّق الصَدر. ولم يكن هناك من يعدل مونتيني كمناهض قويّ ضد رتابة الحياة وجمودها. وبفضل الفِطرة التي تُلهم المبدع

---

(١) زوجة الفيلسوف الإغريقي «سقراط»، وقد عُرفت بأنها كانت امرأة سيئة الطباع، سليطة اللسان (المترجم).

دومًا بالتوقيت الذي ينبغي له فيه أن يغيّر أسلوب حياته، فقد استشعر مونتيني قدوم الفرصة السانحة، إذ يقول:

«وأفضل الأوقات لمفارقة بيتكَ هو الوقت التي تكون فيه قد هيّأته تهيئة ملائمة لأن تسير شؤونه من دونك بلا مشكلات».

ها هو قد دبَّر شؤون قصره كما يُرام، وترك الحقول والممتلكات في أفضل حال، كانت الخزانة مكدّسة بأموال كافية لتحمّل نفقات رحلة طويلة. لكن ما يخشاه، وفق ظنّه، أن ثمن استمتاع المرء بمتعة الغياب الطويل لا ينبغي أن يُسَددَ بعُملة القلق لدى عودته إلى البيت.

كما أنّ عمله الفكري، أي كتاب المقالات قد اكتمل على خير وجه، فدفعَ بمخطوط الكتاب إلى المطبعة، حيث سيُطبع مُجلّدان، هما قوام حياته. ها قد انتهى طور من أطوار الحياة، خلّفه وراء ظهره، أو لو استعملنا تعبير جوته الأثير: **«خلّفه وراءه مثلما ينسلخ الثعبان من جلده القديم»**.

ها قد آن الأوان ليبدأ من جديد. وبعد أن أطلق زفيرًا، حانت اللحظة لأن يأخذ شهيقًا مرة أخرى، وبعد أن ضربَ بجذوره في الأرض حانت اللحظة لأن يقتلع هذه الجذور من جديد.

وهكذا بدأ فصل جديد في حياته.

في الثاني والعشرين من يونيو سنة ١٥٨٠، وبعد عشرة أعوام من العزلة الطوعية – لأن مونتيني لم يفعل في حياته ما يخالف إرادته

الحرّة- انطلق الرجل ذو الثماني والأربعين عامًا في رحلة دامت قرابة سنتيْن، مفارِقًا زوجته وبرجه ووطنه وعمله، وإن لم يفارق فيها نفسَه.

كان سفرًا بلا وجهة ولا هدف؛ سفرٌ غايتهُ السفر ذاته، أو بالأحرى سفر غايته متعة السفر ذاتها. فحتى تلك اللحظة كانت أسفار مونتيني، بدرجة أو بأخرى، أسفارًا رسمية، يؤديها بتكليف من البرلمان أو الديوان أو لأسباب متصلة بأعماله التجارية. كانت أقرب إلى طَلَعات استكشافية، أما هذه المرّة فهو يقوم برحلة حقيقية لا تنشد هدفًا آخر سوى هدفه الأبدي؛ أن يعثر على نفسه. لم تكن عنده خطّة، ولم يكن يعرف ما الذي سيراه، بل على العكس، لم يكن يريد أن يعرف مسبقًا بما سيراه. وعندما كان يُسأل عن وجهته، كان يجيب مازحًا: «**لا أعرف بالضبط ما الذي أتطلّع إلى رؤيته، لكني أعرف تمامًا ما الذي أهرب منه**».

كانت حياته قد دارت بما يكفي في حلقة مُفرغة، وآن الأوان لخوض تجربة مغايرة، وكلما كانت التجربة مختلفة، ارتاحت نفسه أكثر. ربما يكون الجالسون في المنزل، في غمرة قيدهم العبثي، أكثر سعادةً منه، إلا أنه لم يكن يضمر لهم أية ضغينة.

كانت الرغبة في التغيير هي ما تشدّه، وكان يؤمّل من ورائها خيرًا كثيرًا؛ كان يؤمّل أن يتغيّر كل شيء في عينيه: أن تتغيّر اللغة والسماء والعادات والبشر وضغط الهواء والشوارع التي يقطعها

والسرير الذي يحمله. كانت رؤية الجديد عند مونتيني مرادفًا للتعلّم والمقارنة وفَهم الأشياء على وجهها الصحيح. «لا أعرف في الحياة مدرسة أفضل من مدرسة التعرّف على عادات حياتية مختلفة، فهي مدرسة بارعة في إظهار التنوّع الخلّاق والثراء اللا متناهي للطبيعة البشرية». بالنسبة إلى مونتيني سيبدأ فصل جديد من فصول الحياة. سيغدو فنّ العيش عند مونتيني هو فن السفر.[1]

سافرَ مونتيني بغية تحرير ذاته، ولقّنتنا رحلته درسًا بليغًا في كيفية أن يكون المرء حرًا. سافر في رحلة توافق هواه وتلائم مزاجه لو جاز لنا القول. في أثناء رحلته حرص على تجنّب شتّى ألوان القيود والالتزامات، بما في ذلك الالتزام تجاه نفسه. لم يُلزم نفسه ببرنامج رحلة، كان يذرع الشوراع لا يلوي على شيء، ويذهب إلى حيث يأخذه الطريق، وكان يستسلم إلى إرادة المِزاج إلى حيث يأخذه المِزاج. أراد أن يُسَافَر به بدلًا من أن يسافِر.

كان السيد ميشيل دي مونتيني الموجود في بوردو لا يريد أن يعرف إلى أين سيذهب السيد ميشيل دي مونتيني الموجود في «باريس» أو «أوجسبورج» الأسبوع المقبل. كان يريد البقاء في مواجهة نفسه. كان يريد أن يحرّك قدميه، وأن يمضي قُدمًا، ليس إلا.

---

(١) ربما أودّ الإشارة إلى أنّ مونتيني ألهم عددًا لا يحصى من المؤلفين الذي نسجوا على منواله في الكتابة عن فنّ السفر، وآخرهم «آلان دو بوتون» وكتابه الماتع فنّ السفر الذي حذا فيه حذو مونتيني (المترجم).

وكان سرعان ما يعود أدراجه ويبدأ الكَرَّة من جديد لو أحسَّ أن شيئًا من الرحلة قد فاته، سيُمسي الانعتاق من الواجبات شغفًا عند مونتيني. بل إنَّ معرفة وِجْهَـة طريقه كانت تبعث في نفسه أحيانًا شيئًا من الضيق والملل، إذ يقول:

«وجدتُ متعة غامرة في فعل السفر ذاته لدرجة أن مجرد الاقتراب من وجهة مُحددَة سلفًا صار أمرًا منفِّرًا، وأمعنتُ التفكير في شتّى الوسائل التي يمكنني عبرها مواصلة السفر بمفردي وبأريحية».

لم يكن يقصد المزارات السياحية، لأنَّ كل جديد يقع عليه بصره هو في حد ذاته مزار سياحي. على العكس كان يتجنّب زيارة الأماكن المشهورة لأن آلافًا قبله سبق أن رأوها ووصفوها. فمن بداية الرحلة كانت روما، وهي مقصد السيّاح من شتى أرجاء الأرض، موضع نفورٍ في نفسه، يلاحظُ سكرتير مونتيني في دفتر يومياته:

«أظن أنه لو لكان [أي مونتيني] مُطلق الحرّية في حقيقة الأمر، لفضَّل السفر إلى كراكوف أو اليونان بدلًا من متابعة سفره إلى إيطاليا».

كان مبدأ مونتيني الذي لا يحيد عنه: كلما رأيتُ شيئًا مختلفًا ارتاحت نفسي أكثر. لكنه لم يكن يستاء لو لم يرَ ما كان يتوقَّعه، أو ما سبق وأن سمعه من الآخرين، إذ يقول:

«عندما لا أرى في أية بقعة ما زعم الناس وجوده فيها، أفكّر أن أغلب كتب الرحلات مزيّفة، لكني لا أشكو من تبدّد جهودي في السفر، لأني

علِمتُ على الأقلّ أن هذه المعلومة أو تلك لم تكن صائبة».

لكنّ المسافر الحقيقي لا يخيب رجاؤه أبدًا. كان يردّدُ مع نفسه قول جوته: **«الضجر جزء لا يتجزّأ من الحياة»**، فنراه يقول:

«إن اختلاف عادات الشعوب الأجنبية يأسرني ويُشعرني بسعادة غامرة، وأرى أن كل عادة هي صحيحة في سياقها. وسيّان عندي لو قُدّم لي الطعام في طبق من قصدير أو طبق من خشب أو فخار، أو لو أكلتُ اللحم مسلوقًا أو مشويًا، ساخنًا أو باردًا، أو لو قُدّم إلي زيت أو زبد، مكسّرات أو زيت زيتون، لا فرق عندي أبدًا».

وكان مونتيني، هذا المتشكّك العجوز، يضيق ذرعًا بأبناء جلدته المشغولين دومًا بانتقاد كل ما يخالف عاداتهم وتقاليدهم حالما يغادرون قُراهم ويخرجون من مساكنهم. كان يريد رؤية كل ما هو غريب وشاذ في البلدان الغريبة إذ يقول: **«لا أريد رؤية أهالي جاسكوني في صقلية، يكفيني مَن أراهم في بلادي».**

ومن هنا كان يتفادى رؤية أبناء وطنه الذين كان يعرفهم بما يكفي. كان ينشد حُكمًا يقرّره بنفسه، لا حكمًا مسبقًا متحيّزًا. وهكذا يعلّمنا مونتيني، من بين ما يعلّمنا من أشياء كثيرة، فنّ السفر أيضًا.

ذات مرّة سأله سائل: **«وماذا تفعل لو مَرِضتَ وأنت خارج البلاد؟»**

يستشعر المرء من طريقة إجابة مونتيني كما لو أنهم أرادوا إبقاء

هذا المسافر الجامح في داره عبر استحضار فألٍ مشؤوم كالمرض. ذلك أن مونتيني ظلّ يعاني على مدار ثلاث سنوات من المرض الذي ضرب عصرَه آنذاك كنتيجة طبيعة لملازمة الجلوس لساعات طويلة واتباع نظام غذائي غير صحي. ومثله مثل إيراسموس وكالفين كان يعاني من ألم حصوات المثانة، وكان يشقّ عليه مدة شهور طويلة ركوب الخيل في الشوارع.

مونتيني الذي لم يكن ينشد من وراء الرحلة نيل حريته فقط، بل واسترداد عافيته أيضًا، هزّ كتفيه بلا اكتراث ردًا عن السؤال قائلًا:

«لو تأذيتُ مما أراه على يميني، التفتُّ إلى شمالي، ولو لم ألمس في نفسي العافية لركوب فَرَسي، توقّفتُ، ولو نسيتُ شيئًا عدتُ لاستدراكه، ما يزال الطريق أمامي».

كانت يملك إجابة جاهزة عن مسألة القلق من الموت على أرض غريبة: فلو كان يخشى الموت خارج البلاد، لما خطا خطوة واحدة خارج أسوار قلعة مونتيني، ناهيك بمغادرة فرنسا من الأساس. أينما نكون يدركنا الموت، وكان مونتيني في الواقع يؤثرُ الموت راكبًا على صهوة جواده بدلًا من الموت على فراشه حتف أنفِه. لأن المواطن «الكوزموبوليتاني»[1] لا يأبه بأيّ أرضٍ يموت.

في الثاني والعشرين من يونيو سنة ١٥٨٠ غادر ميشيل دي

(١) ارتأيتُ ترجمة المفردة بـ«كوزموبوليتاني»، بدلاً من مواطن أممي وعالمي لأنه مصطلح قارّ في الأدبيات الحديثة، والمقصود هو المواطن الذي يتقبّل عادات وتقاليد وآراء شعوبٍ أخرى ويستوعبها، ويشعر أن وطنه ليس محصورًا في مسقط رأسه (المترجم).

مونتيني أبواب قلعته المهيبة، منطلقًا في رحلة رافقه فيها زوج شقيقته وبضعة أصدقاء وأخ له يبلغ من العُمر عشرين سنة. لم يكن اختيار رفاق السفر موفقًا؛ فهذه الصحبة، التي لم تكن الأفضل بحسب اعترافه، عانت قليلًا من غرابة أطوار مونتيني ومن «زيارته لبقاع مجهولة»[1]. لم يكن خروجه خروجًا يلائم قدر نبيلٍ رفيع المقام، إلا أنه كان موكبًا لائقًا. أهمّ ما في الأمر أنه خرج في رحلته متجردًا عن كل أحكام مسبقة، طارحًا عن نفسه كل غطرسة وكل آراء متحجّرة.

بدأت الرحلة بالمرور بمدينة باريس، وهي المدينة التي طالما عشقها مونتيني وأسرت قلبه. كانت بعض نسخ كتابه «المقالات» قد سافَرت قبله إلى باريس، إلا أنه اصطحب مجلدَين لكي يهديهما إلى الملك بنفسه. صحيح أنّ الملك هنري الثالث لم يكن ذوّاقة للكتب، فهو رجل لا يفقه إلا في الحروب، ولكن بما أنّ رجال البلاط قد اطّلعوا على كتاب المقالات، وأعجبتهم مادّته، فقد قرأه الملكُ ودعا مونتيني إلى حضور واقعة حصار «لا فري».

رأى مونتيني المتابع لكل الأحداث السياسية وقتها، وجه الحرب الحقيقي وويلاتها بعد انقضاء عدة سنوات، وتحديدًا بعد اغتيال صديقه فيليبرت دي جرامون، برصاصة غادرة، فرافق جثّة صاحبه إلى مثواها الأخير في مدينة «سواسون»، ليشرع بعدها في كتابه يومياته في الخامس من سبتمبر سنة ١٥٨٠.

---

(١) وردت بالفرنسية في الأصل de visiter les pays inconnus (المترجم).

والحقيقة أنها مصادفة عجيبة أن يبدأ والد جوته، وكان نموذج الموظَف الرسمي البارد، وأن يبدأ والد مونتيني، وهو أحد جنود الملك فرانسوا الأول، تدوين دفتر يوميات في إيطاليا، كما كانت مصادفة أن يحافظ ميشيل، ابن بيير إيكويم على التقاليد نفسها في تدوين اليوميات، مثلما سيفعل لاحقًا يوهان، ابن المستشار فولفجانج جوته.

سجَّل السكرتير وقائع الأحداث حتى وصولهم مدينة روما، حيث منحه مونتيني عطلة. وهناك واصل مونتيني تدوين اليوميات بنفسه، محاولًا التكيّف مع أجواء البلد قدر الإمكان، مستخدمًا إيطالية ركيكة، واستمرّ به الحال هكذا حتى اليوم الذي عاد فيه ليعبر الحدود، عائدًا إلى بلده الأم فرنسا فيقول: «**على هذه الأرض نتكلّم الفرنسية، ومن ثمَّ عليَّ ألا أتحدّث بهذه اللغة الأجنبية من الآن**». وهكذا يرسم لنا الدفتر كقُرّاء صورة مكتملة نتابع من خلالها مسار الرحلة من البداية إلى النهاية.

في أولى زياراته قصَدَ مونتيني حمامات «بلومبيير»، طالبًا الاستشفاء في رحلة علاجية مكثفة دامت عشرة أيام، ثم انطلق بعدها عبرَ بازل وشافهاوزن وكونستانس وأوجسبورج وميونيخ وتيرول، ليصل إلى فيرونا وفيتشنزا وبادوا والبندقية، ثمّ اجتاز مدن فيرارا وبولونيا وفلورنسا ليصل إلى مدينة روما في الخامس عشر من نوفمبر.

لم يكن كتاب الرحلات الذي ألَّفه عملًا فنيًا على الإطلاق، سيمًا وأن مونتيني لم يكتب سوى جزءًا بسيطًا منه، فضلًا عن كتابته بلغة أجنبية. في هذه اليوميات لا نرى صورة الفنان مونتيني، بل نرى صورة الإنسان مونتيني، إذ رسمَتْ اليوميات الرجلَ بكل خصاله ونقاط ضعفه وهنَاته، والحقيقة أنه كان تصرفًا لافتًا كشف بوضوح عن خصلة غرور لمحدَث نعمة، أقصد أن يُهدي حفيدُ تاجر السمكَ ورجل الأعمال اليهودي، شعارَ النبالة إلى أصحاب النُزل كهدية وداع! وإنها لمتعة حقيقية ـ وهل هناك أفضل مِن «مونتيني ليخبر عن متع الأشياء ـ أن نرى حماقات يرتكبها رجل ذكي، وأن نراقب غرور رجلٍ حرّ طالما أعرب عن ازدرائه لكل مظاهر الشكليات!

سارت الأمور في البداية على ما يُرام. كان حالة مونتيني المعنوية مرتفعة وفضوله يغلب مرضه. استطاع الرجل ذو الثمانية وأربعين عامًا، الساخر دومًا من شيبته[1]، أن يفوق الشبابَ جَلَدًا وتحملًا. في الصباح الباكر يمسك بالسَرجْ بعد تناول كسرة خبز، ويركب الفَرَس، متفقدًا سلامة كل شيء من حوله: المَحْمل، الخبز، العَربة والسرج.

كانت النُزل الرديئة تُسَلِّيه أكثر مما تُضايقه، لأنه كان يجد سعادته الحقيقية في رؤية الناس، في رؤية بشر جُدد وعادات جديدة أينما ولّى وجهه. كان يبحث عن الناس في أي مكان ومن شتّى الطبقات. كان يحاول أن يستفسر من كل شخص يقابله عن «لُعبته[2]» المفضّلة، أو لنقل بكلمة أخرى عن «شغفه».

(١) وردت بالفرنسية في النص الأصلي vieillesse (المترجم).

(٢) وردت بالفرنسية في النص الأصلي gibier (المترجم).

ولما كان مونتيني يبحث عن الإنسان، فلم يكن يعير اهتمامًا إلى الطبقات الاجتماعية؛ فتارة يتناول العشاء مع دوقٍ من مدينة فيرارا، وتارة ثانية يتجاذب أطراف الحديث مع البابا، ومع القساوسة البروتستانت، والزوينجيين، والكالفينيين. لم تكن المزارات التي ينشدها من نوعية المقاصد السياحية المذكورة في كتيبات السفر. كما لم يُشرْ إلى لوحات رفائيل ومايكل أنجلو والتماثيل إلا لِمامًا. عوضًا عن ذلك كان يذهب إلى حضور واقعة إعدام مجرم مثلًا، ويُرحَّب بدعوة عائلة يهودية لحضور طقس خِتان، كان يتردد على المكتبات العامة، يزور قرية «باني لوكا» ويشارك فلاحات القرية رقصهنَّ الشعبي، ويدردش مع متشرّدي اللازاروني[1]، متجنبًا زيارة معالم المشهورة. في عيني مونتيني كان كل شيء طبيعي هو حدث جديد.

امتاز مونتيني على جوته بميزة فائقة؛ ألا وهي عدم معرفته بأعمال «فينكيلمان»[2]، الذي كان يفرض على جميع المسافرين في عصره دراسة إيطاليا بوصفها منبع الفن. لم يكن مونتيني يرى في سويسرا وإيطاليا مجرد مزارات سياحية، بل كيانات نابضة بالحياة، وكان كلّ شيء حيّ في عينيه ذا قيمة معتبرة.

---

(١) Lazzarone تسمية أُطلِقَتْ على أفقر طبقات مدينة نابولي الإيطالية في القرون الوسطى المتأخرة، وكانوا بلا مأوى ولا عمل (المترجم).

(٢) المقصود: يوهان يواخيم فينكيلمان (١٧١٧-١٧٦٨)، وهو مؤرخ فني وعالم آثار ألماني، ويُعدّ الأب المؤسس لعلم الآثار الحديث كان كتابه (تاريخ فينكيلمان للفن القديم) أحد أوائل الكتب التي كُتبت بالألمانية في تأريخ الفن الكلاسيكي، ومارس تأثيرًا قويًا في هيردير وليسينج وجوته (المترجم).

حضرَ مونتيني قداس بابا الفاتيكان الذي استقبله شخصيًا، وجمعته محادثات طويلة بكبار الشخصيات الدينية المرموقة، التي أوعزتْ إليه ببعض الاقتراحات المتصلة بضرورة تنقيح الطبعة القادمة من المقالات، فطلبوا من «المتشكّك الكبير» حذف كلمة المصادفة التي كان يسرف في استعمالها، وأن يستبدلها بكلمة الله أو بكلمة التدبير الإلهي. إلا أنهم شملوه بأسمى آيات التقدير والاحتفاء، ومنحوه لقب «مواطن روماني»، وكان دائم الزهو والفَخر بهذا الشرف «وكانت هذه عقدة نقص في الرجل الأكثر نشدانًا للحرية».

بيد أن كل ما سبق لم يمنعه من الإقرار صراحة بأنّ اهتمامه بروما والبندقية انصبَّ في المقام الأول على المحظيات، اللواتي أفردَ لهنَّ في يومياته مساحة أكبر مما أفرده للكلام عن كنيسة سيستينا وكاتدرائية فلورنسا. وكأن رافدًا جديدًا من روافد الشباب أخذ يتدفّق إلى دمائه، باحثًا عن مساره الطبيعي.

ويبدو أن مونتيني كان يمنح محظياتِه بعض القطع الذهبية التي يحملها معها، كمكافأةٍ على محادثاته معهنَّ، التي كان مقابلها أعلى مما كان يدفعه لقاء خدماتهنَّ الأخرى.

ثم أفسدَ عليه المرضُ الجزء الأخير من رحلته، فانطلق في رحلة استشفائية، قاصدًا حمّامات «لوكا»، وكان نفوره من الأطباء يدفعه إلى ابتكار ألوان جديدة من العلاج والشفاء، وكما كان حرًا في كل شيء، أراد أن يكون حرًا في تطبيب نفسه. بدأتْ تتناوب عليه

ظروف مرضية قاسية، زاد عليها وجع الأسنان والصداع المزمن، حتى أنه فكر ذات مرة في الانتحار. ثم وصلَه خبر في أثناء فترة علاجه، لم يكن متأكدًا أنه سيسعده.

من دون ترشّح منه انتخبه أهالي «بوردو» عمدةً لبلدتهم، وكان خبر تعيينه مفاجأة مدوّية، لأن الرجل كان قد استقال من المناصب الرسمية قبل أحد عشر عامًا، إلا أن ذيوع صيت كتابه الجديد دفعَ أهالي البلدة إلى تكليفه بهذه المهمة الجديدة من دون عِلمه ولا مشاورته، ولا يُستبعد أن تكون عائلته قد حاولتَ بهذا الإغواء حثَّه على العودة إلى القصر.

أيًا ما كان الأمر فقد رجع مونتيني إلى روما، ومنها قفلَ عائدًا إلى زوجته وإلى بيت العائلة مرة ثانية في الثلاثين من نوفمبر سنة ١٥٨١، بعد غياب دام سبعة عشر شهرًا وثمانية أيام، حسبما دوّنَ بدقة في دفتره؛ عاد أصغر سنًا، وأصفى ذهنًا، وأشدّ حيوية مما كان عليه في السابق. وبعد هذا التاريخ بسنتيْن رُزِقَ بأصغر أبنائه.

(٩)

حاول مونتيني تجربة أصعب أمور الدنيا؛ أن يعيش حياته الخاصة، أن يصير حرًا، وأن ينعم بمزيد من الحرية في كل وقت وحين. ولما أتمَّ الخمسين أحسَّ أنه صار قاب قوسين من مرادِه. لكنه لاحظَ أن شيئًا غريبًا يجرى أمامه؛ إذ أنه لما هجر العالَم، معتزمًا تكريس نفسه لنفسه، بدأ العالَم يلحّ في طلبه. في ريعان شبابه دأب على الجري وراء المناصب العامة والمراتب الرفيعة، لكنه لم يحظَ بأيّ منها، أما الآن صارت المناصب والمراتب هي من تلحُّ في طلبه. بذل نفسَه على أعتاب الملوك وفي بلاطهم بلا طائل، أما الآن فهو يُكلَّف بمزيد من المهام الجديدة الأكثر رفعة والأعلى شأنًا. وفي اللحظة التي بدأ يبحث فيها عن قيمة الإنسان في أعماقه، بدأ الآخرون يعرفون قيمته.

وعندما وصلَه خطاب التكليف المؤرخ في السابع من سبتمبر سنة ١٥٨١، الذي أحاطَه علمًا باختياره لشغل منصب عمدة «بوردو» بناءً على إجماع شعبي ودون ترشّح منه، مُلتمسًا من مونتيني قبول هذا التكليف ـ الذي يمثّل عبئًا ثقيلًا عليه ـ «بوازع من حبّ الوطن».

لم يبدُ أن الرجل كان يعتزم التخلّي عن حريته. كان مونتيني يشعُر ساعتها باعتلال صحّته، وكانت آلام حصوات المثانة تشتدّ عليه إلى درجة كانت تدفعه إلى التفكير في الانتحار في بعض الأحيان، إذ يقول:

«ولو لم يستطع المرء وضع حدٍ لهذه الآلام فالأولى به أن ينظر نهاية حياته، بشجاعة وعلى وجه السرعة؛ هذا هو الدواء الوحيد، وهذا هو المبدأ الوحيد والعلم الوحيد».

وأيُّ خيرٍ سيحصده من وراء منصب جديد ما دام قد أدركَ مهمّته الداخلية الحقيقية، وهو منصب لن يورِثه إلا مزيدًا من التعب والشقاء، حيث لا مال ولا تشريف؟ حالما وصل مونتيني إلى قصره وجد في انتظاره رسالة من الملك مؤرخة في ٢٥ نوفمبر وفيها إشارة لا تدع مجالًا للشكّ بتحوّل الرغبة الشعبية للمواطنين إلى أمر ملكي واجب النفاذ.

استهلَّ الملكُ خطابه استهلالًا رقيقًا، معربًا عن سعادته بنتيجة الانتخاب الذي جرى في غياب مونتيني ومن دون عِلمه، طالبًا منه من دون إبطاء ولا أعذار، قبول مهام المنصب الجديد، سيّما وأن الجُملة الأخيرة كانت تقطع أمامه كل سبل التراجع حيث تقول:

«...هذا وسيكون قبولك للمنصب موضع ترحيبنا، وعلى العكس سيكون رفضك موضع استيائنا».

وأمام هذه الأمر الملكي لا يملك المرء إلا الطاعة العمياء. وكما ورثَ مونتيني عن أبيه مرض حصوات المثانة، سيرثُ أيضًا منصب عمدة البلدة.

وبوازع من أمانة، كان أوّل ما فعله مونتيني هو تنبيه الناخبين إلى ألا ينتظروا منه لونًا من ألوان التفاني الكامل الذي عهدوه في أبيه، وعلى الأخص بعد أن رأى روح أبيه تئنّ تحت ثقل هذه الأعباء، ورأى شباب أبيه يذبل، وصحته تتدهور، وأسرته تعاني بعد أن ضحّى بأجمل سنوات عُمره في سبيل أداء مهامّه الوظيفية.

صحيح أنّ مونتيني لم يكن يحمل أية مشاعر ضغينة ضد أحد، ولا يحدوه طموح إلى شيء ولا جشع ولا عنف، إلا أنه كان على معرفة تامة بمواطن ضعفه؛ كان يفتقر إلى الذاكرة الحادة وسرعة البديهة، واليقظة الدائمة والخبرة بشؤون الحياة اليومية والطاقة الجسمانية. وكما هو الحال دائمًا كان مونتيني عازمًا على ألا يفرّط في آخر وأفضل وأغلى ما لديه، وهو جوهر ذاته، وكان جادًا في تأدية كل ما يُطلب منه ويُكلَّف به بأقصى درجة من درجات العناية والإخلاص، ثم يقف عند ذلك الحد. وكيما يوضّح للناس أن التكليف لم يُفرض عليه فرضًا، لم ينتقل للإقامة إلى بوردو، وإنما بقي يمارس مهام منصبه من قلعة مونتيني.

لكن مونتيني، وكما نرى في كتاباته، حينما يقول إنه يبذل نصف المجهود والعناء والوقت في عمله، يبدو أنه ما يزال يُنتج أكثر من

غيره، سيّما بفضل حدّة بصيرته ومعرفته العميقة بالعالم. ولا أدلّ على سعادة المواطنين بأدائه من إعادة انتخابه لفترة ولاية ثانية مدّتها سنتيْن، بعد انتهاء فترة ولايته، وتحديدًا في يوليو سنة ١٥٨٣.

لكن لا المنصب ولا المهمة لم يكونا الشاغلين الوحيدين؛ إذ لم تكد تستغرقه شؤون البلدة، حتى بدأ رجال البلاط والدولة والساسة الكِبار في طلبِه أيضًا. على مدار سنوات طويلة كان القائمين على رأس السلطة ينظرون إلى مونتيني نظرة شكّ وريبة، وهي النظرة المعهودة من رجال الأحزاب والساسة المحترفين دومًا إلى كل رجل حرّ الفكر، مستقل الإرادة.

حيث رموه بالسلبية في عصرٍ كان العالم كله في قمة الانشغال على حدّ تعبيره شخصيًا. لم يوالِ مونتيني ملكًا، ولم ينضمّ إلى حزب أو جماعة، وكان اختياره للأصدقاء قائمًا على فضلهم، لا على انتماءاتهم الحزبية أو الدينية. وفي أوقات إما معنا وإما ضدّنا، أي وقت إما غلبة البروتستانت وإما استئصال شأفتهم من الأراضي الفرنسية، فإنّ رجلًا من هذه النوعية يغدو عديم الفائدة.

أما الآن، وفي أعقاب الدمار الهائل الذي خلّفته الحرب الأهلية، وبعد أن تجاوز التعصّب حدود العبث، صار الحيادُ ميزةً، وصار الرجل المتجرّد من التحيزّات وترصّد المكاسب السياسية والشهرة، هو الوسيط المثالي بين الأطراف المتناحرة.

كانت الأوضاع في فرنسا قد شهدت تحوّلًا لافتًا. فبعد وفاة

فرانيس دوق انجو، وبمقتضى أحكام القانون السالي[1]، صار هنري نافارا (لاحقًا الملك هنري الرابع)، زوج ابنة كاثرين دي ميديشي، هو الوريث الشرعي لعرش الملك هنري الثالث. لكن هنري نافارا ينتمي إلى طائفة «الهوغونوتيون» البروتستانتية، وزعيم حزبهم، ومن ثمَّ فموقفه على نقيض موقف البلاط الملكي الساعي إلى قمع الحركة البروتستانتية، وعلى نقيض موقف القصر الحاكم الذي أوعز قبل عشر سنوات بارتكاب مذبحة «سان بارتيليمي» المروّعة. بينما تقف على الضفة المقابلة طائفة «جويز» Guise «الكاثوليكية» التي تحاول عرقلة انتقال العرش إليه.

ومع رفض هنري نافارا التنازل عن حقوقه القانونية في ولاية العهد، بدا نشوب حرب أهلية جديدة أمرًا محتومًا، إذا لم يتمّ التوصل إلى تسوية وديّة بينه وبين الملك هنري الثالث. ومن ثمَّ كان مونتيني هو الوسيط المثالي الأجدر بالنهوض بهذه المهمة التاريخية الجسيمة، والكفيلة بنزع فتيل الأزمة في فرنسا، لا بفضل عقليته المتسامحة وحسب، بل لأنه كان يحظى على المستوى الشخصي بثقة عميقة من الملك هنري الثالث، ومن ولي العهد الشاب المطالب بحقّه في العرش هنري نافارا.

كان مونتيني يرتبط بأواصر صداقة بالحاكم الشاب، وظلَّ

(١) Der Salische Gesetz: القانون السالي هو مجموعة الأعراف والقوانين التي كانت تحتكم إليها قبائل الفرنجة، ودوِّنت بين سنتي ٥٠٧ و٥١١ ميلادية في عهد كلوفيس، أول ملوك الفرنجة ولقد قدم القانون السالي تنظيمًا مكتوبًا لكل من القانون المدني والجنائي وغيره (المترجم).

محتفظًا بخيوط صداقته حتى في الوقت الذي طُرد فيه هنري نافارا من الكنيسة «الكاثوليكية»، إلا أن مونتيني، كما كتب لاحقًا، اعترف لقسّيسه، بأن اقترف خطيئة لما أبقى على صداقته به.

في سنة ١٥٨٤ زار هنري نافارا قلعة مونتيني في صحبة وفدٍ مكوّن من أربعين نبيلًا وحاشيتهم، ونام نافارا في سرير مونتيني، وأفضى إليه بأشدّ خططه سرّية، وقد برهَنتْ الأيام لاحقًا على مدى صدق ونزاهة مونتيني في تنفيذ ما عُهِدَ إليه به، فبعد بضع سنوات نشبت أزمة ثانية بين الملك هنري الثالث، وولي العهد هنري الرابع مستقبلًا، وكانت أشدّ خطرًا، فكلّفه الاثنان بالقيام بمهمة الوساطة مجددًا.

وبحلول عام ١٥٨٥ كانت ولاية مونتيني الثانية كعمدة بوردو قد انتهت، وكان من المخطط أن يُقام حفل وداع مهيب على شرفِه، مصحوبًا بإلقاء الخُطَب ومظاهر التكريم.

إلا أنّ مشيئة القَدَر حالت دون هذا التكريم. فقد ظلَّ الرجل ثابتًا على موقفه بحماسة ورباطة جأش حينما لاحت نذُر الحرب الأهلية في الأفق مجددًا بين «الهوغونوتيين» والكاثوليك، فأشرفَ على تسليح الجيش، وتفقّد الجنود ليلًا ونهارًا وأعدَّ العدة للدفاع. إلا أنه بوغِتَ من عدوّ آخر، وهو وباء الطاعون، الذي كان قد استشرى في ربوع بلدة بوردو في تلك السنة، فلاذ مذعورًا بالفرار.

لطالما وضعَتْ طبيعته المتمركزة حول الذات الصحةَ في المرتبة

الأولى. لم يكن بطلًا، ولم يدَعِ شرف البطولة قط. لا نملك تصورًا واضحًا لما كان يمثلّه الطاعونَ في تلك الحقبة، وكل معلوماتنا أنه كان نذيرًا واضحًا بضرورة الفرار على وجه السرعة، كما كان الحال مع إيراسموس وغيره كُثر.

ففي بلدة بوردو وحدها أهلك الطاعونُ ما يزيد عن سبعة عشر ألف نسمة، أي نصف عدد السكان تقريبًا في أقل من ستة أشهر. فأما من كان يطيق تحمّل أجرة الهروب بعربة أو بحصان فقد لاذ بالفرار، وأما «عامّة الناس = le menu peuple»، فقد مكثوا في البلدة المنكوبة.

ضرب الطاعون أطنابه في قصر مونتيني، فقرر المغادرة على الفور. غادرت الأسرة كلها؛ الأم العجوز أنتونييتا دي لوبس، وزوجته وابنته. وكانت هذه فرصة سانحة لأن يُظهر مونتيني قوة روحه، بحسب قوله: **«إذ ظهر فجأة ألف نوع من الأوبئة والأمراض في تتابع متواصل»**.

تكبّد الرجل خسائر مالية فادحة، فاضطرَّ إلى ترك منزله من دون حماية، فسنحت الفرصة لكل من هبّ ودبَّ لنهب ما يريده من القصر، وربما نُهبت محتويات القصر فعلًا. فرَّ مونتيني بدون معطف، وبرداء المنزل، لا يلوي على جهة بعينها، لأن أحدًا لن يستقبل عائلة هاربة من مدينة موبوءةٍ بالطاعون، يقول مونتيني:

«أصدقاؤك مرعوبون منك، وأنتَ مرعوب من نفسك، والذعر يطوّق

مَن تبحث لديهم عن مأوى، ربما تضطرّ إلى تغيير محلّ إقامتك بغتة لمجرد شكوى من أحد الرفاق من ألمٍ في طرف إصبعه».

كانت رحلة تحبس الأنفاس؛ على مرمى البصر كانوا يرَوْن حقولًا جرداء، وقرى مهجورة وجثثًا ملقاة في العَراء. بحسب قوله فقد لبث ستة أشهر ينهض «بقيادة هذه القافلة»، وفي تلك الأثناء كان «المُحلّفون»، الذين عهد إليهم بإدارة شؤون البلدة، يبعثون إليه برسالة وراء رسالة.

ويبدو أنهم كانوا يشعرون بالمرارة بسبب رحيله. فطالبوه بالعودة بعد أن أخطروه في نهاية المطاف بأن ولايته لمنصب عمدة البلدة قد انتهَتْ. إلا أن مونتيني لم يعد في الموعد المُحدد لتسليم منصبه. في رحلة الفرار المذعورة هاته فُقِدَ شيء من المجد والشرف والكرامة، لكن «وجود ذاته» بقي في الحفظ والصون. وبحلول شهر ديسمبر، وبعد اختفاء جائحة الطاعون، وفي أعقاب ستة أشهر من التجوال، عاد مونتيني إلى قلعته ليستأنف نشاطه القديم، وهو البحث عن نفسه لمعرفة نفسه. فشرع في تأليف جزء جديد من المقالات، وهو الجزء الثالث.

غشيته السكينة مجددًا بعد أن خلُص من مطاردة البلايا، اللهم إلا أوجاع حصوات المثانة. وها هو الآن قاعدٌ في انتظار الموت الذي سبق وأن «لمسه بيده» مرات عدّة.

بدا أنه سينعَمُ بفترة سلام وهدوء بعد كل ما رآه من ظروف

الحرب والسلم، وكل ما رآه من الدنيا وصروفها، ومن البلاط، ومن العزلة، من الفقر والغِنى، اللهو والجدّ، الصحة والمرض، الرحيل والبقاء، الشهرة وإنكار الذات، الحب والزواج، الصداقة والوَحدة.

برغم ذلك كان يفتقر إلى شيء ما؛ أحسَّ أنه لم يجرّب كل شيء بعد. وها هو ذا العالم يطلبُه حثيثًا مرة أخرى. تفاقمت الأزمة بين هنري نافارا والملك هنري الثالث لتصلَّ إلى نقطة اللا عودة، سيّما بعد أن أرسل الملك جيشًا جرارًا لقتال «ولي العهد» تحت قيادة آن دى جويوز، لكن نافارا استطاع إبادة هذا الجيش عن بكرة أبيه في الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٥٨٧ في موقعة «كوتراس» وكان في مقدوره بعد الانتصار الزحف إلى أبواب باريس، وإنفاذ حقّه في العرش، أو حتى اغتصابه بالقوة.

إلا أنّ رجاحة عقله نهَتْه عن وضع مكاسبه على المحكّ، فراح يلتمس طريق المفاوضات. وبعد ثلاثة أيام من المعركة انطلقتْ القوات إلى قلعة مونتيني. طلبَ قائدها السماح بالدخول فأَذِنَ له على الفور. كان القائد هو هنري نافارا بشحمه ولحمه بعد نصره المؤزّر وقد جاء يلتمس النصح والمشورة من مونتيني بشأن أفضل السُبل لاستغلال هذا النصر الاستغلال الأمثل على الصعيدين الدبلوماسي والسلمي.

كانت مهمة سرّية يسافر بموجبها مونتيني إلى باريس كوسيطٍ لينقل اقتراحاته إلى الملك هنري الثالث. ومن الواضح أنها كانت

النقطة الحاسمة التي ضمنت بعد ذلك توطيد السلام داخل فرنسا وصون عظمتها لمدة قرون؛ ألا وهي تحوّل هنري نافارا إلى المذهب الكاثوليكي.

وما لبث أن انطلق مونتيني على الفور في منتصف الشتاء قاصدًا باريس، ومصطحبًا معه نسخة منقّحة من كتاب المقالات ومخطوط الجزء الثالث منها. إلا أنها كانت رحلة محفوفة بالمخاطر، حيث هاجمتُه القوات ونهبَتْ أغراضه، فرأى ويلات الحرب الأهلية رؤيا العين. بمجرّد وصوله باريس -ولم يكن الملك وقتها هناك- اعتُقِلَ ونُقل على الفور إلى سجن الباستيل. صحيح أنه لم يبقَ في السجن سوى ليلة واحدة بعد تدخّل كاثرين دي ميديشي وإصدارها أمرًا بإطلاق سراحه على الفور، إلا أنّ الرجل الذي كان يطلب الحرية في كل مكان، أُرغِمَ على أن يذوق معنى سلب الحرية. ذهب بعدها إلى بلدة «شارتر» و«روان» و«بلوا» لإجراء مباحثات مع الملك، لتنتهي مهمته بعدها، ويغادر عائدًا إلى قصره.

ها هو الآن قد أمسى كهلًا ضئيل الجسد، يلزَم غرفته في البرج الكائن في القلعة القديمة. وقد تقدّمت به السنّ، وسقط شعره، وبانت رأسه الصلعاء المستديرة، وحَلَقَ لحيته الكستنائية الوسيمة بعد أن غزاها الشيب. خلا المنزل من حوله، لكن أمّه الطاعنة في السنّ كانت ما تزال تجوب أرجاء القصر مثل شبح وقد شارفتْ التسعين. سافر أشقاؤه، وتزوّجت ابنته وانتقلتْ للعيش مع زوجها.

ها هو يملك منزلًا ولا يعرف إلى مَنْ سيورِثُ المنزل بعد وفاته، وها هو يحمل شعار النبالة، لكنه يعرف أنه آخر من يتزيّن به.

يبدو أن النهاية قد اقتربَتْ. ولكن تحديدًا في الساعة الأخيرة يبدو أن الدنيا بدأت تطارده مجددًا. وبعد فوات الأوان تجيء الأشياء إلى عتبة دار مُحتقر الأشياء.

في سنة ١٥٩٠ يجلس هنري نافارا، الذي كان مونتيني صديقه ومستشاره، على عرش فرنسا ليصبح الملك هنري الرابع. ويجب على مونتيني الآن الإسراع إلى البلاط الذي كان يتوافد إليه الجميع من كل حدب وصوب لتقديم فروض الولاء، ولا شكَ أنه سيحظى بأرفع المناصب بعد النصائح الرشيدة التي أسداها للملك. في مقدوره أن يكون مثل ميشيل دي لوبيتال[1] في عهد كاثرين دي ميديشي، المستشار الحكيم، الحاضّ على إبداء التسامح، والمستشار الأول للملك.

لكن مونتيني كان قد زهد في كل شيء، فاكتفى بكتابة رسالة إلى الملك يبعث فيها بأصدق التحيات، معتذرًا منه على عدم الحضور، ويحثّه فيها على اللين والتسامح فيكتب كلماته الرقيقة التالية:

«في مقدور الفاتح التاريخي العظيم أن يتباهى بأنه منحَ أعداءه المهزومين سببًا ليحبّوه مثل أصدقائه».

---

(١) رجل دولة فرنسي مرموق عمل مستشارًا خاصًا للملك السابق (المترجم)

ولو كان الملوك يبغضون مَن يتملّقونهم، فبُغْضُهم أكبر لمن لا يتَوَدَّدون إليهم طمعًا في رضائهم. فبعد هذه الواقعة ببضعة أشهر بعثَ الملك خطابًا إلى مستشاره السابق، أي «مونتيني» مكتوبًا بلهجة حادّة، معربًا عن رغبته في تكليف مونتيني بالخدمة في البلاط، ومُقدِّمًا إليه عرضًا ماليًا سخيًا. لكن الحقيقة أنّ مونتيني لو كان مُعرِضًا عن المناصب الرسمية، فإعراضه كان أعظم عن التورّط في شبهة بيع نفسه.

فيجيب عن رسالة الملك بفخر قائلًا:

«لم أجن يومًا نفعًا ماديًا من وراء الحُكّام، ولم أسع وراء ذلك ولا أرى نفسي أستحقه. أنا غني، يا مولاي الملك، كما يُحبُّ أيّ إنسان أن يكون».

كان يعلم أنه نجحَ في تحقيق ما أشار إليه أفلاطون ذات مرّة؛ أن أصعب شيء في الدنيا هو الخروج من الخدمة العامة بيدين نظيفتيْن. كتبَ مونتيني ممتلئًا بالزهو بضع كلمات يتأمل فيها حياته الماضية فيقول: **«لو نظر المرء إلى أعماق روحه فسيكتشف أنه لم يقوَ يومًا على إيذاء أحد ولا الإساءة إليه، لم تتملّكه يومًا مشاعر الانتقام أو الضغينة، ولم يتورّط يومًا في فضيحة عامة، ولم يحنث بوعده قَط».**

وفقَ كلمات مونتيني:

«وبرغم سنوح الفرصة، مثلي مثل غيري، لم أُقدِم يومًا على الاستيلاء

على ثروة فرنسي آخر أو وضع يدي على أملاكه. طالما كنت أنفق مما أملك، سواء في أوقات الحرب أو السلم، ولم أستغلّ جهد أي شخص من دون أن أدفع له ما يستحقه من أجر ملائم. كانت عندي قوانيني الخاصي ومحكمتي الخاصة التي تضعني موضع المساءلة والحساب».

وقُبيل وفاته انهالت عليه المخاطبات من كبار رجال الدولة، وهو الأمر الذي لم يكن يرغبه ولا يتوقّعه. قبل فترة وجيزة من رحيله، وفي اللحظات التي شعر فيها بوهن الشيخوخة، وبأنه ليس إلا جزءًا وظلًا من أناه، جاءه أمرٌ لم يؤمّل أن يجيئه منذ أمد طويل، ألا وهو لمعة خاطفة من الحبّ والحنان. بقلب يعتصره الألم قال مونتيني إن الحبّ وحده هو القادر على انتشال روحه من سُباتها.

ثم حدثت المعجزة!

فتاة شابة تُدعى «ماري دو جورنيه»[1]، تنحدر من إحدى العائلات الفرنسية الكبرى، وتصغر بالكاد ابنته الصغرى التي تزوّجت لتوّها، وقعت في هوى أعمال مونتيني.

عشِقَتْ الفتاة أعماله وهامَتْ بها هيامًا، واتخذتْ من مونتيني قدوةً ومثلًا أعلى. والحقيقة أنه من الصعوبة بمكان، كما هو الحال دائمًا في مثل هذه الحالات، تحديد هل كان عشق الفتاة الشابة لصاحب كتاب المقالات كمؤلَف، أم هو عشق لشخص مونتيني

(١) تجدر الإشارة إلى «ماري دو جورنيه»، ابنته بالتبنّي هي من كتبَتْ مقدمة مسهبة لكتاب المقالات في صورته النهائية، وفصّلتْ القول في تاريخ تأليف الكتاب وظروفه وفصوله (المترجم).

نفسه، سيّما وأن مونتيني قد دأب على السفر إليها في أوقات كثيرة، ومكث في منزل عائلتها بالقرب من باريس لبضعة أشهر. ومن الآن فصاعدًا تمسي الفتاة ابنته بالتبني، ويعهَدُ إليها بأهم مكوّن في مكونات تركته، ألا وهي كتاب المقالات. والآن لم يبق أمامه من أمور الدنيا إلا شيئًا واحدًا ليخبرَ حقيقته، بعد أن خبرَ كل دروس الحياة وخاض كل تجاربها، الموت.

مات مونتيني حكيمًا كما عاش حكيمًا.

يكتب صديقه بيير دي براش أن موته كان موتًا هادئًا «بعد حياة سعيدة»، وقال إنه خليقٌ بنا أن نسمي موته حظًا حسنًا لأنه أعتقه من أوجاع النقرس المبرحة التي شلّتْ حركته، وخلّصه من آلام حصوات المثانة الرهيبة. وبرغم موته لن تتوقّف ثمار فكره الناضجة أبدًا عن إشاعة السعادة في قلوب الرجال المفكّرين وأصحاب الذوق الرفيع.

وفي الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٥٩٢ يُمسَح مونتيني «بِسرِّ مسحة المرضى»[١] للمرة الأخيرة، لتوافيه المنيّة بعد هذا الطقس مباشرة.

وبوفاته انقطع نسل سلالة إيكويم وباتشاجون إلى الأبد. لأن مونتيني لم يُدفن إلى جوار أسلافه مثل والده، بل دُفن وحيدًا في

---

(١) سرّ مسحة المرضى في العقيدة المسيحية هو سر من أسرار الكنيسة السبعة لإبراء المرضى من أمراض النفس والجسد والروح بمغفرة الخطايا (المترجم).

كنيسة فويلانتس بمدينة بوردو، ليكون أوّل وآخر من حمل هذا الاسم من عائلته على مرّ العصور.

مونتيني

"حين أقرأ "مونتيني" لا أشعر أنني في صحبة عمل أدبيّ أو فلسفيّ، بل في صحبة إنسان من لحم ودم. أشعر أني برفقة أخٍ يُسدي إليّ النصح ويعزّيني بكلمات المواساة ويُهديني صفو صداقته. هو شخص يتنفّس إلى جواري، يدلف إلى حجرتي كغريب، لكنه لا يعود كذلك، بل يُمسي صديقًا حميمًا.

تتنزّل حكمة "مونتيني" على القلب دومًا مثل النعمة المُسداة، وعلى الأخصّ في الأوقات التي يشعر فيها الفرد بتهديدٍ يسلبه سلامَه الروحي. ولئن كنا نُحبُّ "مونتيني" ونُعلي من شأنه فإننا نفعل ذلك لأنه كرَّس نفسه، كما لم يفعل أحدٌ قبله، لأسمى فنون الحياة: فنّ أن تكون نفسك".

شتيفان تسفايغ

في لوحة سيَرية وأدبية، يرسم شتيفان تسفايغ بكثير من المحبة، ملامح من حياة ميشيل دي مونتيني وحكمته. لوحة تمزج بين العاطفة والتاريخ، الأنا والآخر. وكأنّ تسفايغ – في عمله الأخير قبيل انتحاره- بينما يكتب عن مونتيني، كان يطالع مرآة روحه هو.

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING

الترقيم الدولي 978-1-7386435-7-8